رجاء عمران

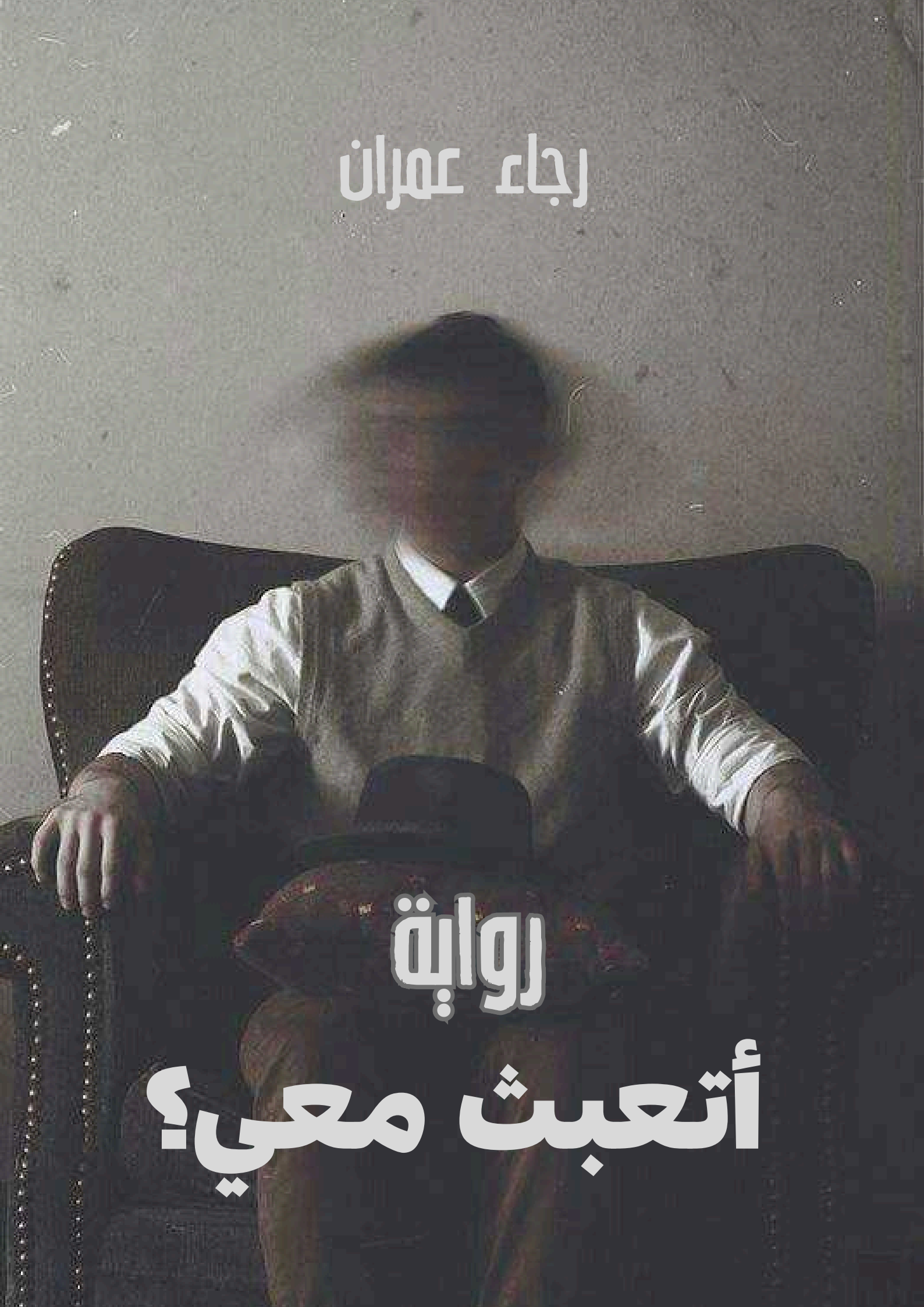

رواية

أتعبث معي؟

رواية

أتعبث معي؟

أعلى الجرف، يقف بينما كل من جسده وما عليه من ملابسه غارقين في البلل
لم تكن الدموع السبب الغالب في حالته هذه، فها هو يكاد يختنق من رائحة البنزين الحادة، الغالون المرمي جانبا قد أُفرِغَ قبل لحظات بواسطة يديه هاته
يرفعها متأملا إياها بنظرات غارقة فِي الندم، إنها نفس الأيادي التي ألقت بأخته الصغرى إلى ذاك الجحيم

تتردد بذهنه الصورة التي رآها قبل ساعات، وسط بياض المستشفى الكريه، كانت جثة صغيرته الحبيبة مستلقية بسكون مرعب والأجهزة الطبية متصلة بها بينما كانت الضمادات تلف كل جزء من جسمها، صغيرته الحلوة البريئة إلتهمتها النيران، بسببه، وهو غير قادر على مسامحة نفسه

أمسك الولاعة التي طالما استعملها لإشعال السجائر، كانت مهربه الدائم من السواد الذي طغى على واقعهم في السنوات الماضية، لكن اللون الأسود الذي حل عليهم هذه المرة لا يمكن محوه ببعض السجائر

كما أن القاتل يُسْتَحل قتله، فمشعل النار لا يغفِر خطأه شيء غير إلقائه في حمم باطن الأرض، وتركه يواجه الانصهار

يضغط على الولاعة، وقبل أن يشعلها يداهمه صوت سيارة ليتبعها صراخ أخيه من أجل التوقف عن ما ينوي فعله

لكنه يستمر في ما بدأه، هذا جزء من الثمن الذي يجب دفعه، شرارة واحدة كانت كافية لجعل اللهب يلتهمه، الألم فظيع، أهذا ما شعرت به صغيرته؟ لن يسامح نفسه أبدا

لا يجب عليه المقاومة، إنه يستحق هذا، لكنه لا يقدر على عدم الصراخ

الألم لا يطاق، فليطفئه أحدهم رجاءً، ألم تبدو له الحياة تافهة قبل لحظات؟ لما إذا يحاول التمسك بها الآن؟ أكان هذا ذوق الموت؟ إنه لا يريده!

يطلق صرخات عالية، أما أخاه فترجل من السيارة راكضا نحوه، بسيل من الدموع تمنعه من الرؤية بوضوح، عليه إطفاء شقيقه، قطعة روحه التي تشوى أمامه، لكن كيف؟

لم يحتج لوقت طويل من أجل التفكير في وسيلة ما، فها بالجسد الملتهب، وبخطوات عاثرة يزل ساقطا من أعلى الجرف

يتهاوى، ليتهاوى قلب شقيقه معه، يجثو الآخر بعدم استيعاب صارخا باسمه، لا يعلم هل يحزن على موته أم على الطريقة التي جاءه بها، شقيقه انتحر، شوى جسده، مجهزا نفسه لاستقبال نيران جهنم التي تفوق هذا السعير بسبعين ضعف!

الفصل الأول

"حان موعد عودة البستاني للانتقام من الذئب الذي أشعل اللهيب بأزهاره في تلك الليلة"

صوت طرق متتابع على الباب، نهض من سريره ملقيا عددا هائلا من الشتائم الساخطة بهمس، الحمقى! ألم يأخذوا المفاتيح معهم؟ سيقوم بفصل رؤوسهم عن أجسادهم فورا

يرتدي نظاراته قبل أن يفتح الباب متوقعا رؤية أمزيان والمرأتان لكنه يتفاجئ بشابة غريبة، يعقد حاجبيه بانزعاج من هيئتها، شعر هارب من حواف الخمار، خندقان من الدمع حفرا على طول وجنتيها الممتلئتان، وتعابير غاضبة كلبؤة جائعة على وشك الانقضاض على فريستها، يتمنى أن تكون مخطئة في العنوان لا غير

«من تكونين؟»

ألقى سؤاله لتجيبه الشابة بنبرة ممتلئة بالحنق والحيرة: «زوجتك على ما أظن؟!»

ظل واقفا مكانه معتنقا الصمت لأجزاء من الثانية، متبادلا معها النظرات، قبل أن يغلق الباب في وجهها ويعود أدراجه لاستكمال نومه

إضافة لتعطل المكيف وسط هذه الليلة الحارة لا ينقصه شيء كالتعامل مع مجانين منتصف الليل

*

دولة بوريزا، في إحدى القرى
بعد أيام .. 10 صباحا

تظن أنها عثرت أخيرا على ألم يفوق ألم الولادة الذي يتحدثون عنه عادة، إنه الشعور الذي يعتريك بعدما قضيت عاما كاملا تجالس الكتب وتتناول مختلف المعادلات الرياضية مع توابل مكثفة من التعريفات والمصطلحات العلمية من أجل الحصول على نتيجة تجعل عائلتك فخورة بك

لكنهم في النهاية .. يخرجون عن المألوف ويمنحوك هدية من نوع آخر، طرد من المنزل، وتجهيز زوج من العدم، نعم .. إنها المخدرات!

لابد من أن والدها عاد لتعاطي تلك المهلوسات مجددا، فلا شيء غير هذا قد يبرر فعلته، صحيح أن عائلتها لم تكن تلك الأسرة المحبة الطبيعية، إلا أنها لم تتوقع يوما وصولها إلى هذه الحالة

دموعها من الليلة الماضية لم تكن حزنا على مفارقتهم بقدر ما كانت تعبر عن كرهها وغضبها، لما يفعلون بها هذا؟ أهي البطة السوداء؟

بدأت تشك في كونها ليست ابنتهم الحقيقية، كانت لتؤكد هذه الفكرة لولا انعكاسها الغاضب في مرآة الحمام، عيناها البندقيتان الحادة نسخة أصلية من عيون والدها، الأب الذي تخلى عنها

بخطوات تحاول جعلها لا تكسر الأرضية، خرجت من الحمام وراحت تشغل لسانها بذكر الله، الطريقة المثلى لتهدئة أعصابها، لفت حجابها على رأسها وخرجت من غرفتها

رغم أن الوضع ليس قابلا للتصديق إلا أن الهيجان لن يزيد الأمور إلا سوءً، فلتحاول التعايش مع الوضع ريثما يعود أولئك المجانين لصوابهم وتعود المياه لمجاريها، كل ما عليها هو اعتبار هذا المنزل كنزل مؤقت خاص بقضاء عطلتها الصيفية بعيدا عن ضجيج المدينة

«يقولون أن القول أسهل من الفعل»

همست بهذا بعدما باغتتها الخادمة بدفع جسدها والبدء في الصراخ طالبة منها البقاء في مكان واحد وعدم الوقوف في طريقها، ترمقها بحدة، مساحة الرواق تكفي لرقص خمسة فيلة بالفعل، هذه العمياء تتعمد مضايقتها منذ اللحظة التي علمت فيها أنها ستمكث في هذا المنزل

«توقفي عن إضاعة الوقت واتبعيني، عليك بالعمل، لا عيش بالمجان هنا»

تبعتها للمطبخ دون الرد عليها وأمسكت المنشفة لتبدأ في تجفيف الأطباق متجاهلة إساءاتها المستمرة، طيلة سنواتها الأربعة عشر قلّ ما كانت تترك مجالا لمضايقتها دون الرد نظرا للجزء الشرس من شخصيتها، لكن ما سمعته بالأمس جعلها تكبح نفسها

الخادمة، أو كما تسمى أنستازيا، تكره المتدينين .. لا بل تمقتهم نظرا لطريقة موت والديها، فلقد قتلى على يد أشخاص من جماعة متطرفة يستحي المرؤ على تسميتهم بالمسلمين، هذا ما قالته الجدة سارا عندما عرفتها على البيت

هذا المنزل يحمل أربعة قاطنين غيرها، الجدة سارا، إبنها أمزيان، المدعو زوجها .. والذي يكون ابن عمها في الآن ذاته .. وأنستازيا الخادمة
ظنت في بادئ الأمر أن الجدة قريبة زوجها لكن اتضح أنها مرضعة والده، مربية العائلة، المخلصة التي ربت الأولاد ثم الأحفاد، قالت أنها أرضعت والدها أيضا لذا أمزيان عمها بالرضاعة، لكن ما يمنعها من نزع خمارها هو جهلها عن كونه محرما لها أو لا نظرا لديانته، فكل من سارا وابنها نصرانيان

تغلبها ابتسامة ساخرة، ملحدة ونصرانيان، لن تستنكر لو علمت أن زوجها يهودي أو بوذي، باتت تتوقع أي شيء من المستقبل

تستغفر الله لتدعي لهم بالهداية، سرعان ما عادت للواقع عند انكسار الصحن المنزلق من بين يديها، تنحني لجمع شظايا الزجاج متمتمة: أعني يا رب، أصبحت أشرد كثيرا هذه الأيام

«هل ربك سيصلح الصحن؟ توقفي عن تلويث آذاننا بهذه الترهات، يا للمسلمين الحمقى»

يتوافق تعليق أنستازيا الساخط جرح شظية لإصبع الشابة، تحتد ملامح الأخيرة لترد بحنق دون القدرة على التجاهل أكثر ملتفتة لها: أيمكنك إبقاء لسانك مختبئا داخل فمك الكريه؟ بدل شتم عقائد أشخاص لا يعلمون أمر وجودك على الكرة الأرضية حتى .. أشغلي نفسك بشيء يفيد البشرية، صمتك وحده سيفي بالغرض إن أردتي الصراحة

ماكادت تكمل ردها وها بحبة طماطم تستقر على وجهها، كانت أنستازيا من رمتها عليها لترد باستعلاء يغزو عيناها الزرقاوتان: سأكتفي الآن بهذا كعقاب لك على وقاحتك، الأصغر سنا لا يجب أن يرفعوا أصواتهم على من يكبرهم، ناهيك عن كونهم مسلمين دخيلين على بيت غيرهم مثلك

وبعدها استدارت لتستكمل قطع الخضر ولسانها لا يكف عن التذمر مردفة: ربما عليك دعاء ربك المزعوم ليعيدك لعائلتك التي تخلت عنك

دقائق من السكون مرت قبل أن تستقيم الشابة واقفة، تسير نحو الثلاجة قائلة بهدوء: بما أنك لا تؤمنين بالله فما هو معتقدك حول الوجود؟

بابتسامة ساخرة منتصرة تجيب أنستازيا: جيد أنك قررتي أخيرا إشغال عقلك والتفكير

«ألن تجيبي؟»

«إن كنت مصرة، الطبيعة من أوجدت نفسها صدفة، وسيأتي اليوم الذي تقرر فيه الانفجار والتلاشي، فلن ينتظرنا شيء من يوم الحساب والجزاء الذي تعتقدينه أنت وأمثالك أيا كان اسمك»

أخرجت الشابة إبريق ماء من الثلاجة، ارتشفت القليل وسط حديث أنستازيا لتجيب: «إنه ضياء، اسمي ضياء»

صمتت قليلا قبل أن تتقدم نحو أنستازيا مردفة: «ومن الأفضل أن تتذكريه جيدا»

«لما؟»
«لأنه اسم صاحبة المكان من الآن فصاعدا أيتها الخادمة الوضيعة»

وختمت تحذيرها بصب الماء البارد على رأس أنستازيا التي شهقت بصدمة لتلتفت باستنكار: «كيف تجرؤين؟!»

إلا أن ضياء هتفت مدعية البراءة: أجرؤ على ماذا؟ لست انا من فعلها، بل الصدفة، الطبيعة من أخرجت الإبريق وأحضرته وسكبت مابه عليك، لا أظن أن هذا يستحيل على من صنع هذا الكون البديع حسب قولك

كانت ضياء ستثرثر أكثر مستمرة في السخرية من معتقد أنستازيا إلا أن الأخيرة سارعت في الانقضاض على ضياء، رغم أنها لم تتجاوز الرابعة عشر سنة إلا أنها تملك جسدا مليئا ناضجا يبديها أكبر سنا، رفقة وزنها الزائد، وهذا ما جعلها تستطيع الصمود أمام ضربات أنستازيا وتردها

إنهما تبدوان كقطتي شارع شرستين تتصارعان لإمساك الجرذ الوحيد الذي كان يلف المكان، والفرق أنه لا فأر هنا

*

بعد أيام

"أخي العزيز، تخيل ماذا، أختك الصغيرة تأكل شيء غير العجائن، شوربة الجدة سارة لها ذوق خاص، سأتعلم كيفية طهيها لأحضرها لك عند عودتك، سعودي الحبيب"

تضغط ضياء على زر الإرسال، لتخرج من صفحة الرسائل مكملة مشاهدة إحدى الفيديوهات، لكن سرعان ما تلامس آذانها رنة وصول رسالة، تتسع ابتسامتها، لابد من أنه رد سعود، تعود للرسائل لتميل فمها ببعض العبوس، لقد أخطأت، إنه ريان

"ضي ارسلي لي عنوان منزلك، أمي تريد إرسال هدية نجاحك"

قبل أن تجيبه متجاهلة خيبة أملها تعلق أنستازيا بطبعها الساخر وهي ترتب مائدة الغداء: «لما هذا العبوس؟ هل أغضبك حبيبك؟»

«للمرة الخامسة بعد المائة سأجيبك بأنني لا أملك حبيبا، إنه ريان، ابن أخي»

«ألم تقولي سابقا أنه فارس؟ ولا ننسى سعود أيضا، لا تكذبي إن كانت لك ذاكرة سيئة»

«أعتذر لكوني أملك الكثير من الأقارب أيتها الذكية»

ترد ضياء متجاهلة مضايقة أنستازيا المعتادة، شجارهما بالمرة الماضية لم يغير الكثير، صحيح أنها لم تعد تسيء كثيرا للدين لكنها لا تزال غير قادرة على كبح تعليقاتها

«حسنا سأرسله، لكن لما أخبرت أوركيد عن حقيقة حديثك معي؟ لو يعلم أبي عن هذا فسيعاقبك»

ترسلها لريان لتصلها الاجابة بسرعة، إنه سريع في كتابة الرسائل، هذا ليس غريبا على عاشق إلكترونيات مثله

«لا تقلقي، أمي بئر أسرار، حاولت إخفاء الأمر عنها لكنها تجيد جعلي أخبرها بكل شيء، أظنك تعلمين سحر زوجة أخيك»

«حسنا يا ابن أخي العزيز، أخبرها أن تختار هدية جيدة، آمالي مرتفعة»

قبل أن تقرء رده تطفئ الهاتف لتضعه جانبا، الجدة سارة أحضرت الشوربة وبدأت في سكبها على الأطباق، تجلس أنستازيا بجوارها ويحضر أمزيان هو الآخر لينضم لهم، وقت الأكل مقدس هنا، تُمنَعُ الهواتف وأي انشغالات أخرى، تسأل الجدة أمزيان عن زوجها ليقول أنه أوصل صينية الأكل لغرفته، كالعادة، هو لا يأكل مع الجميع

تتلوا الجدة وأمزيان صلواتهم قبل الأكل، تعبس أنستازيا كالعادة كلما رأت شكلا من أشكال التدين أما ضياء فتلتزم الصمت بعد بسملتها مفكرة

زوجها، قالت أنستازيا أن اسمه ذئب، وهو مهووس بالبقاء في غرفته، وفتحه لباب المنزل في اليوم الذي وصلت فيه كان بسبب غيابهم، فقد ذهبوا للمستشفى بسبب مرض الجدة المفاجئ

«ستعيشين مع زوجك من الآن فصاعدا»
الجملة التي لم تستطع استيعابها بعد، كانت آخر ما قاله والدها عندما أوصلها لهذا المنزل، حاولت مناقشته، ظنته يمزح، لكنه تركها وغادر

أما بخصوص موضوع زواجها، متى حدث وأين وكيف؟ فلا تذكر، الشيء الوحيد الذي تعلمه أن والدها زوجها لأحدهم عندما كانت طفلة، في السابعة ربما من عمرها، كانت تشعر بالفضول حول هذا الموضوع في بادئ الأمر لكنها لم تجد أجوبة مقنعة، فنست الأمر، ومرت السنوات، وها بوالدها يفتح الموضوع مجددا

تقبض بشدة على الملعقة عاقدة حاجبيها بانزعاج، مهووس الغرفة غريب الأطوار ذاك هو زوجها؟! ما المصيبة التي رماها بها والدها، لقد تجرأ الوقح على غلق الباب في وجهها وتركها عند الحديقة لأكثر من ساعتين، منتظرة عودة البقية، حيث بدت الجدة وكأنها تعلم عن موضوع قدومها

ذئب، اسم على غير مسمى، الذئاب نبيلة شهمة، كان من المفروض أن يستقبلها حتى لو لم يعرفها، ليس الأمر وكأنها ستقتله

تنقص من حدة تعابيرها مفكرة، لكن من وجهة نظر أخرى فهو محق، تخيل لو انك تستضيف فتاة بريئة من باب الشهامة، وفور أن تدير ظهرك لتحضر لها كوب ماء تباغتك بطعنة، يا للروعة

يقطع خيالها الروائي فوضى خفيفة، الجدة ترحب بأحدهم باستغراب، أنستازيا تقف بتحية متوترة وأمزيان يتقدم نحو من دخل المكان، استدارت لترى من يكون لتجده، ضحية القاتلة، تقصد ذئب زوجها

«هل كل شيء على مايرام؟ أتعاني من مشكلة ما؟»

أمزيان صاحب الرأس الأصلع اللامع، العملاق الهادئ ذو النظرات الحادة السكينية، يبدي وجها قلقا لم تره من قبل خلال هذا الشهر وهو يتقدم نحو الضيف ليجيبه الأخير وهو يتقدم نحو المائدة جالسا: إنه وقت الغداء على ما أظن

تمضي الدقائق، ولا شيء غير أصوات تخبط الملاعق بالصحون يُسمَعُ بها، هذه المائدة تحمل خمسة أشخاص، الجدة.. أمزيان الصامت بقلق .. أنستازيا التي جلست أخيرا بجوار الجدة وكأنها تطلب الحماية وملامحها غارقة في التوتر، ضياء وذئب

تبلع ريقها متجاهلة رفع نظرها لذئب المقابل لها، لما جلس هنا؟ ولما تشعر بنظراته الثاقبة نحوها؟ رغم نظارته البنية الغريبة والتي تمنع عيناه من الظهور، إلا أنها تشعر بها، أيريد إيصال رسالة لها مفادها أنه لا يريد منها البقاء هنا

«نور»

يكسر الصمت صوت ذئب لتتوجه كل الأنظار نحوه، لا يفهمون مقصده إلا أن نظراته الثابتة نحو ضياء جعلتهم يستوعبون غايته

أشارت ضياء لنفسها متسائلة باستغراب: «أتقصدني؟»

يهز رأسه إيجابا لتردف بشبح ابتسامة: «اسمي ضياء»

يرد بعدم اهتمام واضح: «لايهم، كلها مشتقات للإنارة»

«عفوا؟!»

كادت تقولها باستهجان وسط شعورها بالإهانة لكنه يقاطعها وشكل غريب يُرْسَم على ثغره، من المفترض أن يبدو كابتسامة: أتمنى أن تستمتعي بعطلتك الصيفية معنا

ودون ترك مجال للإجابة ينهض من مكانه تاركا صحن الشوربة الذي لم يصل للمنتصف بعد، ويغادر

«لابد من أنه محموم»

«ربما كلب مسعور قد عضه»

علق أمزيان برعب وهو يتبع ذؤيب، لتهمس أنستازيا زافرة براحة، أما الجدة فاستمرت بتناول أكلها دون أي تعليق

تكمل ضياء تناول وجبتها هي الأخرى وعلامات التعجب والاستنكار جلية على وجهها واشية بما تفكر في هذه اللحظة

هل تعتبر هذا ترحيبا بها أم تهديدا يجب سماعه والمغادرة في أقرب لحظة؟ مضمون ما قاله يعاكس تعابيره تماما، حتى تمثيله الفاشل جعلها تقلق أكثر، وجهه بدى كوجه أخيها الصغير الذي يبديه عندما تجبره على تناول القرنبيط

*

بوريزا
منزل عائلة مياس

«سيد ريان، الغداء جاهز، يرجى النزول لقاعة الطعام»
تقولها الخادمة لتعود أدراجها للمنزل، أما ريان فينهض نافضا العشب عن ثيابه، الاستلقاء على الأرض واللعب بالهاتف أفضل جزء من يومه

يرفع نظره للمكان الذي هو به، رغم الأيام الكثيرة التي مرت إلا أنه لم يتعود على المكان، حديقة شاسعة، دون الحاجة إلى وصفها فهي تبدو كحديقة قصص الطفولة

بخلاف أنها مليئة بمختلف أنواع الورود والأزهار بشكل مبالغ فيه

قبل أن يدخل للمنزل يرفع رأسه متأملا إياه للحظات، الأمر ينطبق عليه أيضا، هل سماه بالمنزل سابق؟ وكأنه بيت عادي، "قصر"، هذا هو الوصف الصحيح له، من كان يتوقع أنه ينتمي لعائلة بهذا الثراء؟

يتذكر سنوات حياته التي قضاها في دولة رواء، بيت عادي وحياة بسيطة، لو أراد شراء شيء غالي كان يمضي أسابيع في تجميع مصروفه، ولو انقطع الانترنت فيقضي أياما جحيمية من الانتظار إلى أن يعود

أما هنا فها هو يمنع دموعه من الانهمار من شدة سعادته بسبب قوة الشبكة، ضياء المسكينة، فاتها هذا النعيم

يسير في الرواق معيدا نظراته لشاشة الهاتف، اختفت في منتصف الدردشة، لابد من أن شاحنها قد انتهى، يالها من مهملة، بالحديث عنها فرغم طمأنتها له بكونها بخير إلا أن القلق لا زال يثقله، كيف للشخص أن يكون بخير بعد طرده من عائلته؟

تلوح ذكرى ذاك اليوم في ذهنه، لم يكفيهم حقيقة أنهم عادوا من النزهة ليجدوا بيتهم قد أصبح وجبة للنيران، تخيل لو أنهم لم يقرروا فجأة الخروج لنزهة؟ كانوا على الأرجح سيكونون مشويين الآن

لكن سعد، والده العزيز، بدل تهدئة الأوضاع وقول أن كل شيء بخير أخذ يصرخ ويلوم ضياء، جديا ما شأنها فيما حدث؟ وبفضل هذا قرر جده أخذها لمنزل زوجها وتركها تعيش هناك، هل جن لفعل شيء كهذا؟ والأهم .. منذ متى كانت ضياء متزوجة؟! إنه على وشك الجنون حرفيا

ضياء، عمته التي تماثله العمر، طالما كانا معا، وكأن غراء يلصقهما ببعضهما البعض، لا يوجد شيء تعلمه ولم تخبره به، على الأرجح هي الأخرى لم تكن تعلم شيئا عن هذه الزيجة

يتوقف ريان بمحاذاة باب قاعة الطعام دون أن يبدو لأحد، وبخطوات هادئة، وجسد مرن، يتفادى نظرات الجميع ويتسلل للجانب الآخر صاعدا الدرج نحو الطابق العلوي، والذي خصصه كبير العائلة لأسرتهم بعد عودتهم من الرواء جراء احتراق منزلهم

يسير بالرواق ليتوقف عند غرفة والديه، يفتح الباب ليكمل تسلله وصولا إلى غايته، أمام منضدة الزينة، يفتح الدرج ويسحب بيديه الملوثتين بعضا من الأوراق النقدية، يغلق الدرج ثم يرفع نظره للمرآة، يستطيع أن يرى انعكاسه، سارق دنيء يختلس أموال والده، يغمض عينيه متنهدا، لم يتوقع أن يعود لهذا المسار القذر مجددا

بكل أسى يفتح عينه ناويا الخروج، لكن يقابله انعكاس في المرآة، السارق ريان وجالده من الخلف

يطلق صرخة فزعة لتسقط النقود أرضا، بعينين جاحظتين يبتسم بتوتر متأتئا: «زهرة الأوركيد خاصتي أنت متفتحة اليوم بشكل جميل»

ترمي عليه أمه نظرات احتقار ويديها مكتفة على صدرها: «هل قررت التضحية بحياتك من أجل لعبة فيديو أم مجلة مصورة هذه المرة؟»

يتفادى النظر لعينيها مباشرة، سيعتذر ويهرب، من الجيد أن أمه من أمسكت به وليس والده

لكن قبل أن يحرك لسانه تجمع أوركيد النقود لتصدمه بقولها: «سأخبر سعد هذه المرة، عليه تأديبك»

«ربما هو من عليه التأدب ودفع بعض التعويضات بسبب ما فعله!»

«ماذا تعني؟»

«أردت شراء رواية ضياء المفضلة قبل أن تنتهي من الأسواق، أخبرتها أني سأرسلها لها خلال هذه الأيام»

تحتد تعابيره بعدما انفلت ما بخاطره دون أن يدرك ذلك، لكنه سرعان ما يبلع ريقه عند استيعاب مدى فداحة ما قاله، لتسأل والدته بدهشة: «أتعلم أين هي ضياء؟!»

«لا تخبري جدي رجاءً»

«كيف علمت مكانها؟»

«استطعت تحديد عنوان المنزل الذي هي به من مواقع تواصلها»

يجيبها لتقول بتنهد ملقية نظرة على هاتفه لتعيد النقود لمكانها: «نعم، هذا ليس صعبا بالنسبة لمهووس إلكترونيات مثلك، مستواك أفضل مما توقعت بني، والآن اذهب لتناول غدائك»

«ماذا عن الرواية؟»

ترمقه بحدة ليبتسم ببلاهة متجاهلا وقاحة السؤال، السارق يطالب بمسروقاته بوجه صخري، أما أوركيد فتحرك رأسها بخيبة أمل مجيبة: «أخبرني عن عنوانها وسأتكفل بشرائها»

«وجدي؟»

«سيبقى الأمر سرا، أدرك أنه سيمنعك عن التواصل معها، عندها ستغرق في الاكتئاب، لا أحد يستطيع مجاراة أحاديثك المغرورة غيرها»

«شكرا أوركيدتي الحلوة، أستطيع فهم سبب وقوع أبي في حبك»

يقبل رأسها ليغمز لها بمشاكسة متجاهلا قرصاتها المؤلمة، لا يوجد أفضل من الأم، أوركيد، أمه، وزهرة حياته

*

بعيدا
هاسلاند تحديدا

وبينما هناك أشخاص يتمتعون ببداية العطلة الصيفية عند شواطئ البحر ومياهه، هناك آخرين يسبحون بين الدماء والجثث المتطايرة

دانيال، ذو الشعر البني الأملس والعينان الضيقتان، يمسك المكنسة وبقية أدوات التنظيف واقفا عند بوابة موقف السيارات التابع للبناية، متأملا المعركة الطاحنة التي أمامه بينما قطرات الدماء تستمر بالقفز لوجهه كالعادة

منظر طبيعي يحدث بين الفينة والأخرى عندما يتسلل الأعداء لمبنى المنظمة، ليدافع الحراس عنه وتبدأ الحرب، في العادة كان يحرك جسده ويدفعه عائدا أدراجه للداخل قبل أن يلقى حتفه عن طريق الخطأ، فهو عامل نظافة بسيط، وصل مبكرا لا غير، سيعود بعدما تهدأ الأوضاع للتخلص من البقايا الممزقة والأعين المقلوعة

لكنه هذه المرة يضع أدوات التنظيف جانبا، وبدل الانسحاب يميل جذعه ممسكا بسلاح الجثة الملقية عند قدميه، وبمهارة غير متوقعة منه، يصوب على الأعداء راسما ابتسامة ساحرة على ثغره هاتفا بصوت لم يسمعه غيره: لقد حان وقت المتعة!

الفصل الثاني

هاسلاند .. منزل زعيم عصابة الأوركيد
ليلا

إنها الذكرى السنوية لتأسيس العصابة، وهذا ما يعني حفلة في بيت الزعيم
عصابة الأوركيد، رغم الاسم اللطيف إلا أنها تصنف ضمن أخطر العصابات في القارة

طبيعة العمل فيها تنص على تجزئة الأعضاء إلى جماعات ثم فرق، أي أن العصابة مكونة من ثلاث جماعات، جماعة الشرق والغرب والشمال، وكل منها تحمل مجموعة فرق، في الفريق الواحد قد تجد عضوين إلى خمسة أعضاء ذوي مهارات مختلفة، فهناك المقاتل من المسافة البعيدة المعتمد على الأسلحة، ومن المسافة القريبة صاحب القوة الجسدية والأحزمة السوداء في مختلف الفنون القتالية، إضافة إلى مخترق الحواسيب والمخطط وغيرها من المهارات الأخرى

يحمل دميتري كأس شرابه مفتخرا بين الحاضرين الذين يملكون وجوها تناسب ما قد يملكه عضو عصابة: «وطبعا الفريق الأفضل هنا هو فريقي، أنا المقاتل البارع، ماكس الجاسوس، ودانيال القناص»

«انظروا للغرور عندما يصبح لديه فم، قد أتفهم مدحك لنفسك ولماكس، لكن دانيال؟ ألم ينضم هذا الخادم للعصابة قبل أسابيع فقط؟»

يُميل دميتري فمه باستياء من تعليق أحد الحاضرين الساخر، ليمسك ذراع دانيال ذو الأعين الضيقة المتوترة هاتفا: «لا تكن أحمقا، إنه جوهرة لم تنتبه لها أعيننا من قبل، أنتم مدعون لمشاهدة مهاراته على أرض الواقع لاحقا، ستُبْهَرون!»

«أنت تبالغ أخي دميتري»

يقاطعه دانيال الخجل ببعض التأتأة، شكله لا يدل بتاتا على كونه فرد من عصابة خطيرة كهذه، مكانه قد يكون في شركة مملة مع عمل روتيني لا أكثر

«حسنا، متشوق لرؤية أدائه، والآن انظروا لمن خرج من مكتب الزعيم»

يعاود الرجل الساخر التعليق مشيرا هذه المرة نحو باب القاعة، تحديدا عند السلالم حيث ينزل منها رجل متوشح بالسواد، من شعره وعينيه الكحيلتين لبدلته الفاخرة، ليردد دميتري بغيرة

«مهندسنا العزيز، جوزيف أمبروسيا، ما الشيء الذي جعل الزعيم يعجب به»

«قوة الدماء تعلو على بقية السلطات عزيزي»

يستمرون في الحديث حول هذا المهندس الذي لم يلتفت نحوهم حتى مكملا طريقه لمكان آخر، أما دانيال فلم يهتم لكلامهم أيضا، بل انسحب بعيدا عنهم وغادر القاعة دون جذب الأنظار

*

بوريزا .. في القرية
بغرفة أحدهم

فوضى، ضجيج، صور متداخلة، أشجار عالية، عناق تتلوه طعنة، وها بوجه مسود تعلوه ملامح الموتى يهمس بفحيح: «ذؤيب، اقتلني!»

استيقظ فزعا بعينين جاحظتين ونفس سريع لينظر حوله بارتياب، الجدران الكئيبة والأثاث الساكن، كل هذا لم يتغير، هو في غرفته، لقد كان مجرد كابوس

يأخذ نفسا عميقا ليمسح على وجهه محاولا تمالك أعصابه، ثم يعتدل في جلوسه مستكملا الأعمال المكتبية التي قاطعتها الغفوة البائسة، هذه الأعمال تجعله يشعر بكم هائل من الملل والضجر لكنها تبقى الحل الأفضل للهروب من الفراغ، وما يرافقه من الذكريات السوداوية

دقائق لا يُسمَع فيها شيء غير خربشة القلم وصوت الضرب على أزرار لوحة المفاتيح، فجأة تبدأ الإضاءة بالبريق .. النور ينقطع ويعود بسرعة، رفع نظره للمصباح باستنكار، ألم يصلح أمزيان العطل بعد؟

بلع ريقه ليعود لعمله متأكدا من أن الأمر لن يستمر طويلا، تمر الثواني بشكل ثقيل، ليعود نفسه للتسارع جاعلا صدره يرتفع ويهبط بشكل ملحوظ، سيل من العرق يأخذ مجراه على وجهه، القلم لا يكاد يثبت بسبب ارتعاش يده الشديد، والبريق لا يزال على حاله

«ذؤيب، اقتلني!»

ينقبض قلبه فور سماعه للهمس، نظر حوله ليجد الجدران تحمل ذاك الوجه البائس وتضيق عليه الغرفة، ينهض من مكانه سريعا، مد يديه للدرج مخرجا نظارته الخاصة واندفع بأقصى سرعة خارج المكان مغلقا الباب خلفه بكل ما أوتي من قوة، قبل أن تتبعه تلك الوجوه

استند على الجدار بتعب مرتد النظارة .. نظارة خاصة تخصص له مستوى إنارة يناسب كرهه للظلام ومعاناته من حساسية تجاه الإنارة الشديدة .. ولكون غرفته الوحيدة التي بها إنارة متناسبة معه، يلزم عليه ارتداء النظارة في بقية أرجاء المنزل وخارجه

يتحسس حلقه الذي أصبح ينافس البيداء في الجفاف، مضى وقت طويل على عيش هذه الأجواء الكريهة، بئسا أمزيان لما لم تصلح الإنارة؟ من سيجعله ينسى وجه راشد الآن

يستمر في شتم أمزيان وراشد، منتقلا للمهندس الذي صمم هذا المنزل الضخم أثناء سيره نحو المطبخ من أجل شرب الماء، لما الرواق طويل لهذه الدرجة؟ رأسه بدأ في الطنين ليشتد الألم عليه مع كل خطوة يخطوها

يستند على الجدار متوقفا عن التقدم في محاولة لاستجماع قواه ليقع نظره فجأة على الإطار الضخم المعلق على جدار الرواق، امتعضت ملامحه أكثر، سرعان ما يشيح نظره عنه مكملا السير، لكن سرعان ما هاجمه ألم فظيع من الخلف، شيء ثقيل ضرب تهاوى على رأسه، لا يستطيع استيعاب ما يحدث فها بالعتمة تغلف رؤيته

*

هاسلاند مجددا

يخرج من الحمام ليسير بحذر وتمثيل متقن لتنكره على شكل خادم بسيط، إنه الدور الذي طالما أتقنه، يرى الأعضاء مجتمعين في القاعة الرئيسية، يستمتعون بالحفلة بينما قلة منهم يتوزعون على أنحاء الحديقتين الخلفية والأمامية، أما بقية أرجاء المنزل فيتوزع بها الخدم وحسب

قبل أن يصعد السلالم يتوقف منحنيا باحترام رفقة بقية الخدم فور رؤية ذاك الذي ينزل متجها للقاعة، شعر أسود يخالطه الشيب، عينان بها مزيج من الأزرق والرمادي، ووشم وردة على طول عنقه

المعروف الذي لا يحتاج لتعريف، أوليأندر أمبروسيا، زعيم عصابة الأوركيد، وعدوه اللدود

تحتد نظرات فارس بحقد أزلي تأبى ناره الانطفاء، يشد على قبضته، ثم يأخذ نفسا عميقا مهدئا من روعه ليكمل سيره بعد دخول ذاك الوغد للقاعة
كم يتمنى إمساكه وتهشيم رأسه، إفراغ ذخيرة المسدس بجمجمته، قطع أطرافه ورش الملح عليها، دفنه وهو حي تحت القاذورات، وأكثر من كل هذا، لكن عليه الصبر، قتله لن يكون كافيا، يجب حرمه مما يحبه قلبه وجعله يتجرع من المرارة ذاتها

يتخطى الخدم الآخرين دون لفت الانتباه ليصل لعتبة الطابق الثالث، المكان الذي لا يُسمَحُ لغير الزعيم وأتباعه المختارين بالتواجد فيه

أخرج هاتفه ليضغط على السماعات الإلكترونية التي بأذنه معاودا الاتصال بريان، ليجيب الأخير بحنق: «هل عدت مجددا؟ كيف لك أن تنهي الاتصال فجأة بعد رمي أوامرك؟ أتظنني خادما لديك؟»

«كف عن الكلام وأخبرني هل اخترقت نظام الحماية؟»

«قبل هذا أنت من يجب عليك إخباري عن نوع هذا المكان؟ أهذا مبنى عصابة؟ هل أرسلناك للدراسة أم ماذا؟ جدي سيجن لو علم بهذا، هل أنت طفل تشعر بالملل؟»

ينوي فارس شتم هذا الثرثار لكنه يتمالك أعصابه ويقرر ترك كرامته تهان في سبيل أخذ غايته، عندما يلتقي به سيريه من هو الطفل

«ماذا عن النظام الأمني؟»

«كل شيء جاهز، لن تعمل أجهزة الإنذار طيلة الربع ساعة القادمة لذا أسرع، ولا تنسى المبلغ المالي الذي وعدتـ...»

ينهي المكالمة دون سماع باقي الحديث ليفتح باب الطابق ويسير في الرواق، يجب أن ينهي عمله في أقل من ربع ساعة، وجد باب المكتب المنشود ليفتحه والجًا المكان بسرعة، مجموعة من أرفف الكتب تتواجد على جانبي الغرفة، مكتب يتوسط المكان وخلفه جدار زجاجي يطل على معالم دولة هاسلاند وأضوائها الساطعة

يستعمل مصباح خاص كاشفا للبصمات ليسلطه على الكتب باحثا عن آخر ما قد اُستخدِم مفتشا إياه، من المحتمل أن تُخبأ بعض الأوراق الهامة هنا، يصدق حدسه ليجد مجموعة من الوثائق، يخرجها ليصورها ويعيدها لمكانها منتقلا للمكتب، سطحه فارغ وأدراجه مغلقة، يخرج عودي حديد ليفتح القفل بعد ثوان ويكمل عمله مصورا كل

ما يبدو أنه يحمل قدرا من الأهمية، لا يملك الوقت لتصفح كل هذا لكنها تبدو كغنائم تباع بالملايين لو عرضها على الشرطة
انتهت عشر دقائق لينتهي عمله أيضا، يعدل ثيابه ليسير خارجا لكن يوقفه صدى خطواته المريب، يجثو ليضرب على الأرضية، هناك فراغ تحتها، لابد من أن الوثائق الهامة مخبئة به

مسح بيديه على الأرضية مجددا متحسسا أي زر قد يساعده على فتحها، وجده، يضغط عليه ليظهر له لوح إلكتروني خاص بكتابة الرقم السري، يكشر معاودا الاتصال بريان هامسا بعجلة: «ريان ألم يكن هناك جهاز حماية في أرضية المكتب؟»

«بلا، وقد اخترقته للاحتياط، أرأيت كم أنا رائع!»

«أسرع وقل الرقم السري أيها الثرثار»

«حسنا حسنا، لكن عليك الدفع أكثر، إنه تاريخ ميلاد أمي، يا للمصادفة، يبدو أن صاحب المكتب يملك شخصا مميزا بعمرهـ...»

يقاطع فارس ثرثرته مجددا منهيا الاتصال ليكتب الأرقام التي يحفظها، تاريخ ميلاد زوجة أخيه مميز وسهل الحفظ، فطالما كانوا يحتفلون بعيد ميلادها

ينجح الأمر، يرتفع جزء من الأرضية مظهرا ما يوجد أسفله .. مجموعة من المجلدات الرثة .. يحملها باستغراب، ماذا يوجد داخلها؟ وثائق؟

ألقى نظرة على محتواها بسرعة ليجد مجموعة من الصور لأناس يبدو أنهم من نفس العائلة، رغم عدم وضوح الصور نظرا لقدمها، لكن المثير للانتباه أن أسماء النساء كلها تقتصر على أسماء الورود والأزهار وحسب، يتذكر أسماء زوجات إخوته وبناتهن، يبدو أن هناك أشخاص آخرين يتبنون عادة التسمية الغريبة هذه

لا يركز كثيرا مع المجلدات، يبحث عن وثائق أخرى لكنه لا يجد شيء، من الأخرق الذي سيحتفظ بمجلدات رثة بهذا الحرص؟!

يقاطعه صوت إنذار، ينظر ناحية ساعته بصدمة، ماذا يحدث؟ لم تمر ربع ساعة بعد، أعاد المجلد لمكانه وأغلق الأرضية ليخرج بسرعة من المكتب ثم الطابق بأكمله، ينزل السلالم ليجد جميع الخدم يركضون وهم يصيحون: «لقد هربت السجينة، ابحثوا عن فتاة شقراء تملأ الندوب جسدها»

سجينة؟ أهذا سبب إطلاق الإنذار؟ يزفر ببعض الراحة ليكمل تقدمه بهدوء ناويا تغيير ملابسه، يدخل الحمامات الرئيسية حيث خبأ ثيابه

قبل الدخول لإحدى المراحيض يلقي نظرة على وجهه المنعكس على المرآة، خصلات شقراء وعيون عسلية كحلية، إنه يزداد وسامة كالعادة، حفظ الله هذا الجمال وباركه

تتسع ابتسامته بغرور مظهرا لؤلؤات أسنانه البيضاء، لينحني مخرجا كيس ملابسه من مخبأه أسفل المغاسل، ثم يتوجه نحو المرحاض للتغيير

لكنه يتسمر مكانه فور شعوره بفوهة مسدس تضغط على مؤخرة رأسه، وصوت من الخلف مخاطبا إياه بحدة: «ما الذي تحمله يا هذا؟ حمام الخدم ليس هنا»

تتسع ابتسامة فارس دون رد، لقد أُكتُشِف أمره من طرف العميل النبيل ماكس، يا لقلة حذره، كيف لم يشعر بدخوله؟ حسنا هذا ليس غريبا على جاسوس

دون أي تمهيد يستدير فارس ليضرب معصم ماكس ملقيا المسدس بعيدا، يخرج ماكس مسدسا آخر ليصوب نحوه لكن الأشقر يتفادى الطلقة، لا ينكر أنه بارع للغاية في القتال لكن حمله للكيس وقدرات ماكس التي لا يستهان بها تنبئه بخسارته في النزال، لذا يجب عليه الفرار

بحركة مراوغة يدخل إحدى المراحيض ليصعد على حافة الكرسي ويقفز من النافذة المفتوحة متفاديا طلقات الرصاص المتتالية

هابه يجد نفسه في الحديقة الخلفية، يستكمل الركض نحو سيارته بكل ما أوتي من قوة، لابد من أن ماكس سيلحقه في أي لحظة

.
.
.

أدار ماكس مقود السيارة في مجاراة لسرعة ذاك المتنكر الفار
رؤية خادم في حمام الأعضاء ليس شيئا عجيبا في منزل الزعيم المليء بغريبي الأطوار، لكن إخراجه لكيس مخبئ بدا مريبا، لهذا شك به

إضافة لنقطة أخرى .. هل كان هناك خادم يملك وجها كهذا؟ هذا ما سأل نفسه به قبل أن يصوب المسدس نحو رأسه، رغم تردده المستمر لهذا المكان ومعرفته لكل الخدم إلا أنه لم يره من قبل، وضعه مشكوك فيه
لو كان خادما جديدا فلابد من أنه سيُظهِر له بطاقة تعريفه مباشرة .. فقد اعتاد رئيس الخدم على إخبارهم بإخراجها فور الشك في أمرهم من طرف أعضاء العصابة .. لكن الرجل فر مباشرة بعد القيام بحركات بهلوانية لا يستطيع خادم عادي القيام بها

أهو جاسوس؟ كيف استطاع التسلل وتعدي جميع أنظمة الحماية التي أعيت أقوى المنظمات؟ كل الذين حاولوا فعلها كانت الحديقة أقصى ما تبلغه أقدامهم، ربما ساعده أحد من الداخل، عضو أو خادم

أو ربما كان نفسه مُنظَم للعصابة، لكن يستبعد هذا فملامحه كانت طبيعية لا يبدو عليها أثر التنكر، كما أنها لا تعود لأي فرد من أفراد العصابة

أعين واسعة عسلية اللون كحيلة الأحداق، لابد من أنه من دولة بوريزا، بالرغم من أن الشعر الأشقر ليس مشهورا هناك

وسط تحليله تستمر المطاردة قائمة وصولا للطريق السريع، يميل فارس سيارته لجانب الجسر المطل على النهر، يعقد ماكس حاجبيه باستنكار، لما لا يبقى في المنتصف؟ ذاك الموقع سيصعّب عليه مراوغة بقية السيارات

تبدأ سرعة سيارة فارس في التباطؤ لتتقلص المسافة بين سيارتهما، يستمر ماكس على نفس سرعته رغم شكه في حركته المريبة، يجهز مسدسه فور اقترابه منه، المسافة أصبحت مناسبة لإطلاق النار على العجلات وبعدها استهداف رأسه منهيا هذا الإزعاج

لكن فجأة ما يُفتَح الباب الأمامي لسيارة الهارب لتتوقف العجلات عن الحركة ويقفز فارس بتهور منها إلى النهر، تتسع حدقتا عيني ماكس بذهول من حركته الانتحارية المجنونة، وفي لحظة تشتت انتباه تصطدم سيارته بسيارة الهارب لتبدأ الأخيرة في الانقلاب ثم الانفجار

*

بوريزا .. القرية
بغرفة إحداهن

"كوني حذرة من ذؤيب، لا يوجد من يفوقه في اللؤم، لا أعلم من الذي ضرب أبي على رأسه حتى يتركك معه!"

فارس الثائر، ظل يرسل لها رسائل كهذه منذ اللحظة التي علم فيها من ريان عن ما حدث، لابد من أن معرفة قديمة تربطه بذئب

أو لنقل ذؤيب، قال فارس عندما سألته عن سبب مناداته باسم مختلف مجيبا

"تلك الأميرة تكره اسمها منذ كنا صغارا، يظن أنه دليل على الضعف، يا للسخف"

فارس يكرهه حقا كما يبدو، من المؤسف أنه محتجز مع اختبارات جامعته في هاسلاند، وإلا لجاء وأوقف هذه المهزلة وأعادها للمنزل

تنهض لتطوي ثياب صلاتها، تنفض فراشها، ثم ترمي نفسها عليه متأملة سقف الغرفة و أرجائها، إنها المرة الأولى التي تحصل فيها على غرفة خاصة، في بيتهم السابق، الضيق جدا، نظرا لسكن إخوتها وأسرهم معهم إضافة إلى الحالة المالية السيئة بعض الشيء، كانت تتشارك غرفتها مع سوسن وأطفال إخوتها، ما عدى ريان الذي كان بغرفة فارس، أما سعد وركان فكل منهما أخذ غرفة مع زوجته، ليبقى والدها في غرفته الخاصة، والتي كانت ترافقه بها والدتها قبل أن تموت

تذكر آخر أيام والدتها، كانت مستلقية على فراشها والحزن ينهشها، لا تذكر السبب تحديدا، ربما بسبب راشد، كانت قد مرت سنتان على اختفائه، صحيح أنه ليس ابنا حقيقيا لها لكنه ارتبط معهم وصار جزءا لا يتجزأ من عائلتهم، رفقة أخواته الثلاث، سوسن، كاميليا زوجة ركان، وأوركيد زوجة سعد

ترتسم ابتسامة شقية على وجهها بينما يدها تمتد لتمسك الهاتف مراسلة سعود

"هيه سعود، ما رأيك بالزواج من سوسن عندما تعود؟ من الممتع أن يكون التوأم الثلاث متزوجين من أخوات"

تتلوا رسالتها بإيموجي ضاحك، لكن العبوس يعاودها بعد دقائق من انتظار رده، لا يجيب

تلقي الهاتف بعيدا متذمرة: «ما الذي يجعله مشغولا لدرجة عدم الرد على أخته العزيزة؟»

ترفع عيناها نحو الساعة، لتفكر في شيء آخر، لقد مرّ الوقت والمدعو ذؤيب لم يأتي، منذ اليوم الذي شاركهم الأكل فيه أصبح يمر على غرفتها بشكل يومي قبل موعد نومها، ويردد جملة واحدة مع شبح ابتسامة مرعبة

«إن زارتك أي كوابيس الليلة فلا ترددي في إخباري»

أليس هذا الاهتمام أحد علامات رجل أحلام كل فتاة؟ كانت لتصاب ببعض الجنون وتتخيل وقوعها في حب هذا الأمير وعيش قصة حب خيالية معه، إلا أن ملامحه تلك من المحال أن تُنْسَبَ إلى شخص مهتم، لا تفهم الغاية من فعله، لكنها لا تهتم كثيرا، يكفيها أنها تقضي أياما مريحة

تعاود إمساك الهاتف، لا رد من سعود، حتى فارس لا يبدو متصلا، أما ريان فلا يجيبها على غير العادة، أهذا اليوم العالمي لانشغال الرجال؟

تتنهد بيأس قبل أن يلمس مسامعها صوت طرق خفيف على الباب، تنهض متوجهة له بابتسامة مصطنعة، لابد من أنه ذؤيب

تفتحه دون السؤال عن هوية الطارق، وقبل أن ترحب به تشعر بيد تطوقها مانعة إياها من الحراك، وقطعة قماش توضع بقوة على وجهها لتُجبَر على استنشاقها، نعم إنها ترى ذؤيب، لكنه محمول على كتف رجل غريب رفقة شخص آخر يحاول تنويمها

*

هاسلاند
خارج منزل الزعيم

بخطوات تخالها تسابق سرعة الصوت والضوء، تبذل كل ما بقي لها من طاقة في الركض، الركض وحسب، وكأن حياتها متوقفة عليه

فلتحذف حرف التشبيه، فحياتها متوقفة عليه بالفعل، لم تصدق أنها ستهرب ببساطة من بين أيديهم هذه المرة

وسط ركضها وألمها إثر الجروح التي ملأت جسمها، تثبت سوسن نظرها على الرجل الممسك بيدها بقوة موجها إياها للطريق خلال عتمة الليل، بينما كانت محتجزة في إحدى الغرف بذاك المبنى أتى فجأة وساعدها على التسلل خارجا

لكن من يكون؟ أهذه مجرد خدعة؟ وفقا لثيابه فقد يكون جزءا من العصابة، أهم يعبثون معها؟ ما نوع هذه اللعبة؟

تحاول سحب يدها لكن قبضته قوية، وكأنه يخشى تركها، تستسلم للأمر تابعة إياه، رؤية نهاية هذا الأمر خير من البقاء في تلك الزنزانة منتظرة المجهول

يعبران بعد بعض الوقت بين الحشائش لترى سيارة سوداء مظللة، يخرج الرجل المفاتيح فاتحا إياها ليقول وسط أنفاسه المتسارعة: «أدخلي»

لا تمانع رغم قلقها، تركب ليتبعها محركا السيارة بسرعة متمتما: «لابد من أن الإنذار سيُشَغَل الآن»

«من تكون وما الذي تنوي فعله؟»

تسأله، لكنه يجيب بغموض: «شخص يريد مساعدتك»

تسأله أكثر لكنه يلتزم الصمت، يقود السيارة لدقائق طويلة، يلقي نظرات نحو المرآة لتعلوه نظرة منزعجة قبل أن يخرج مسدسه، تبلع سوسن ريقها بعدما لاحظت السيارة التي تبعتهم، هامسة: «رحمتك يا الله»

*

الفصل الثالث

هاسلاند
صبـاحـــا

فتحت عينيها ببطئ مستغربة من المكان الّذي هي فيه، ظلام الأمس كسرته أشعة الشمس المتسللة من الجدران المتشققة

مرّت لحظات حتّى استوعبت ما الّذي حدث معها، بالأمس تركها الرجل الغريب هنا لتقضي ليلتها وحيدة طيلة السّاعات المنقضية، تساءلت هل انتهت أماكن الاختباء ليتبقى هذا المكان تحديدا، مبنى مهجور، أو تحديدا .. قصر مهجور

رفعت نظرها مستوعبة البناية الشاهقة التي هي بها، وكأنه قصر من العصر الفكتوري، بالرغم من القدم الذي غطاه، وآثار اللهب التي أكلته

لون الرماد الملتصق بكل زاوية دلالة على أن النيران إلتهمت المكان منذ زمن بعيد

تتوقف عن التأمل والتفكير في ما لا يفيدها، لتسير بحذر مفكرة، ما الذي عليها فعله الآن؟ أتنتظر عودة الرجل الغريب؟ لكن الفكرة تعتبر مخاطرة، من المحتمل أنه ميت الآن على يد أصحاب السيارة التي تبعتهم، أو أنه غير رأيه وسيعيدها لمحتجزها، لذا عليها الاعتماد على نفسها والهرب

«لكن هذا غير ممكن أيضا»

تحدث نفسها فور ما أطلت من النافذة لتقابلها مساحة شاسعة من النباتات الذابلة المتيبسة، ولا أثر لعلامة حياة، حتى الطريق السريع .. الشيء الوحيد الذي يدل على علامات التمدن .. خال من السيارات، هذا القصر يقع في مكان نائي بعض الشيء

تزفر بإرهاق من السبل المغلقة أمامها، لتتوقف مكانها وتتيمم لتصلي، إنها الطريقة الوحيدة التي تجعلها تهدئ من روعها، الرحيم لن يتركها، ستتوفر وسيلة للخروج من هنا بالتأكيد

بعد دقائق قررت الخروج والمخاطرة، ستهرب حتى لو سارت لأميال على أقدامها الحافية، ستحاول، لكن المشكلة، أين هو باب الخروج؟

ظلت تلف المكان محاولة تذكر مكانه، إلى أن تعبت، تتكئ على الجدار بحثا عن بعض الراحة لكن سرعان ما شعرت بمقبض بالقرب من مكان استنادها
دون تردد تحت تأثير الفضول أدارته ليفتح باب تسلّلت منه أضواء شموع، ممر طويل تتوزع المواقد على جانبيه

يدب الخوف بقلبها، من قد يشعل الشموع؟ أهناك من يسكن القصر؟ ماذا لو رآها ماذا سيفعل؟

تتجاهل الوساوس لتتقدم مستمعة لما يقوله قلبها، قد يكون شخص طيب سيقدم لها يد المساعدة

تتقدم أكثر بخطى شبه ثابتة، متجاهلة حروق الندبات التي تملأ جسمها إثر التعذيب الذي تلقته، بينما عيناها متعلقة على الجدران الرخامية التي تحمل صورا لأشخاص عدة

أرستقراطيين من الزمن القديم، كانت ستقول هذا لولا ثيابهم التي تحمل بعضا من الحداثة، تلحظ الطابع العام لأسمائهم، خاصة النساء منهن، مسمات بأسماء الزهور

الأمر يذكرها بكل من اسمها وأسماء أختيها كاميليا وأوركيد

تستوقفها صورة إحداهن، والتي زادت من حيرتها، شابّة تبدوا في العشرين من عمرها، ذات شعر حريري ذهبي، وعدسات عيناها التي تماثل لون الزبرجد الأخضر الذي ترتديه

تقرأ سوسن الاسم المنحوت أسفل الإطار: أكاسيا أمبروسيا، الأميرة العاشرة لعائلة أمبروسيا الأستقراطية

تبتلع ريقها لتزيد دقات قلبها من تسارعها، ليست مدهوشة من اسم العائلة النبيل أو الثراء الواضح عليها، بل ما يرعبها هو أن الموجودة في الصورة، نسخة طبق الأصل منها، كادت تخال أنها تنظر للمرآة لولا اختلاف الثياب

تنقل نظرها لصور أخرى، النساء نسخة من أخواتها، أما الرجال فيجذبها الإطار الأضخم، يبدو كبير العائلة، صورة لرجل حاد الملامح، ذو شعر أسود وعيون حملت مزيجا ساحرا بين الأزرق والرمادي، مزيج لم تراه مسبقا إلا بعيون شخص واحد، ابن أخ الرجل الذي رباها، المدعو ذؤيب

«أنت من تكونين وما الّذي تفعلينه هنا؟»
تقفز بمكانها مرتعبة من الصوت الذي هاتفها من الخلف، تستدير متوجسة لتجد رجل غريب يرمقها بنظرات حادة مردفا بغضب: «أجيبي قبل أن أتصل بالشرطة، من الوغد الذي فعل بك هذا؟!»

تستوعب مفاد حديثه فور انتباهها لنظراته المستاءة نحو ثيابها، لابد من أنه يظنها فتاة عادية اعتدى عليها أحدهم ورماها هنا

وقبل أن تجيبه مجددا تلحظ الهول الذي على نظراته نحوها وهو يهمس بعدم تصديق: «أكاسيا أمبروسيا؟!»

"لست شبحها"
كانت ستجيبه مهدئة من روعه، فسكان هاسلاند ليسوا مسلمين في الغالب منهم من يؤمن بقصص الأشباح، لكنه ينوي الحديث مقاطعا إياها للمرة الثالثة، إلا أنها تمنعه قائلة بحدة بعدما ضاقت ذرعا: «أيمنك الصمت قليلا أيها السيد؟»

وتردف قبل أن يجيبها بعجلة فور تذكر حالتها: «تبدو شخصا جيدا، لذا أتمنى منك مساعدتي، لا أعلم من هذه المرأة ولما تشبهني، كل ما أريده هو العودة لعائلتي، لقد خطفتني عصابة من بلدي»

يصمت قليلا بتفكير ونظرات شك صريحة، تخاله سيرفض بعد سماع سيرة العصابة، فلا أحد سيريد توريط نفسه في مشكلة كهذه، إلا أنه يجيبها خالعا معطفه الطويل معطيا إياها: «أتريدين الشرطة؟»

تهز رأسها بالإيجاب لترتدي المعطف الذي يستر ثيابها البالية: «نعم!»

«حسنا اتبعيني للسيارة»

.
.
.

بمركز الشّرطة تحديدا
الظّهيرة

«اتبعيني أيتها الآنسة»

يناديها الشرطي بعد دقائق قليلة من الانتظار، تستغرب تجاهلهم لمن كانوا أتوا قبلها وجعلوهم يلتزمون كراسي الانتظار، هل اهتمامهم بأمرها هو كون قضيتها متعلقة بالعصابة الأخطر في البلد؟

لا تفكر كثيرا سائرة خلف الشرطي، إنها في بر الأمان أخيرا والحمد لله، لم يبقى لها الكثير وستعود لأسرتها

تبتسم ببعض الحزن، نعم ستعود لأسرتها، بالرغم من أنه لا تجمعهم قطرة دم واحدة إلا أنهم ملجأها الوحيد في هذا العالم المخيف

«تفضلي أيتها الآنسة، سيأتي الضابط بعد لحظات»

يخاطبها الشرطي تاركا إياها في إحدى المكاتب، تجلس على الكرسي وتحمل نظراتها للصورة التي تعلو المكتب، لابد من أنه الضابط

تأخذ نفسا عميقا محاولة التخفيف من توترها وتأخذ في تحريك لسانها ذاكرة الله، لم يبقى الكثير للانتهاء من هذه الفوضى

*

بوريزا
في مكان ما ليلا

ككل يوم منذ ذلك الحين، غزت تلك الذكرى أيامه ولياليه، تعود للطوفان في الذاكرة، لتغوص وتغوص، أكثر فأكثر، تصل الأعماق، لتتعدى حدود الفكر وتعود متجسدة في محيطه

منذ أن فتح عينيه منذ زمن طويل، ورغم ما حل بيديه وأقدامه، المربوطة بعناية مانعة منه الحراك، إلا أن هذا لم يحرك فيه ذرة خوف واحدة، بقدر ما فعل ذلك الوجه الملتصق بالجدار، مدرك كل الإدراك أن عقله من ينسج هذه الصورة له، لكنه غير قادر على منع أوصاله عن الإرتعاش، راشد هنا، ينظر لعينيه بثبات ويستمر في إشعال الذكرى، مرددا دون أدنى كلل «أقتلني ذؤيبٌ»

«لا ترتعب، سيتم إنقاذنا بإذن الله»

يحمل نظره ليلقيه على الصبية الجالسة على بعد منه، محتوى كلمتها يعاكس النبرة التي أُخرِجَت من فاهها، نبرة مرتعشة بصوت مرتعبة تطلب منه الطمأنة ظنا منها أنه خائف من الحال التي هم بها

ليس وكأن حالها أحسن من حاله، مقيدة هي الأخرى، كلاهما محتجزان في الغرفة المهترئة، الخاوية من أي شيء، عدى النافذة الوحيدة في أعلى الجدار، التي تعكس نور القمر، المصدر الوحيد لكسر هذه العتمة، والتي لا يستطيع أحد وصولها إلا لو ملك طول شخصين على الأقل

صوت رجلين يجيء من خلف الباب، إنهما الخاطفان على الأرجح، لا يجذبه الكثير من قولهما غير هذا: «اذهب وأحضر الكاميرا الآن، في حوزتك نصف ساعة لتعود»

«ولما لا نستعمل كاميرا الهاتف»

«لا تضيع الوقت، هواتف هذه الأيام ذات جودة سيئة، طُلِبَ أن تكون جودة الفيديو بأفضل ما يمكن»

«أتساءل إن كان سيضعه بالدارك ويب، إن مثل هذه الأشياء شائعة هناك، أرواح المسكينين لن ترقد بسلام»

ينقطع صوت حديثهما بعد ابتعادهما، يصوّب ذؤيب نظره لضياء مباشرة، ليجدها تبادله النظرات، لكن من نوع آخر، نظرات مرتعبة: «ماذا سيفعلون بنا؟»

ببرود فظيع يجيب: «سنُقتَل على الأرجح»

لم يكد ينهي جوابه وها بسيل من الدموع يشق طريقه على خدها، يغمض عينيه مسندا رأسه على الجدار من خلفه بكل هدوء، ليس وكأنه تخيل نهاية أفضل لشخص مثله، القتل، إضافة لكون آخر ما سيسمعه هو صياح فتاة مزعجة

يبتسم بسخرية لم يستطع مقاومتها متمتما: «ستكون سعيدا على الأرجح راشد، لكن لسوء الحظ أختك ستذهب هي الأخرى»

قبل أن يكمل التفكير والغوص في الذكريات يعقد حاجبيه فاتحا عيناه، يرمي نظرة جانبية بكسل نحو ضياء، الدموع لا تتوقف ورعشان أطرافها مستمر، لكنها تتلو بعضا من آيات القرآن بهدوء غريب

القرآن، مرت مدة منذ سمعه، لا يسمعه إلا برمضان عندما تصل غرفته تلاوة شيخ الجامع بالتراويح، حينها لا يستطيع إكمال نومه بسبب الكوابيس التي تؤرقه، لكن التلاوة تجعل نبضات قلبه تهدأ وروحه تطمئن، كهذه اللحظة تماما، صوت الصبية ليس بذاك الجمال لكن قراءتها عذبة، ولسبب ما يأخذ صوت راشد في التلاشي قليلا

«ماذا نفعل الآن؟»
تسأل ضياء بعد دقائق معدودة من تلاوتها، لتردف بملامح جادة، محاولة تجاهل ارتعابها: «بقت ما يقارب العشرين دقيقة، علينا الهرب»

يرمقها بهدوء، لما توقفت؟ كان سيسألها لكنه امتنع عن ذلك، والآن ماذا عن الهرب؟ لم يكن يمانع الموت، لكن ليس نفس الأمر مع ضياء، عمه ائتمنه عليها بالفعل، كما أن راشد لن يكون سعيدا بموت أخته بهذا الشكل، لو حدث مكروه لها من المحتمل أن أطيافه ستضاعف من ظهورها

لا يجيبها فتعود لمخاطبته وإزعاجه، أما هو فيتأمل المكان، لا شيء مفيد لاستعماله للوصول إلى النافذة الوحيدة، يلقى نظرة مركزة على ضياء، صحيح أنها فتاة لكن لا يمكن إنكار حقيقة أنها بدينة وطويلة

تبادل ضياء النظرات معه لتسأل بقلق طفيف: «أتحتاج شيئا»

أما هو فيجيب دون تردد: «سلّم ربما»

*

هاسلاند
بمركز الشّرطة مجدّدا

ظلّت تراقب السّاعة بملل من الّذي هي فيه
مر وقت طويل منذ خروج الشرطي وهي لا تقدر على الانتظار أكثر، لا تعلم لما لكن فجأة ما راودها ذاك الاحساس، القلق والريبة من شيء ما لا تعلمه، لا تشعر بالراحة، هناك خطب ما، لا تعلم ما هو لكنها متأكدة من وجوده، فإحساسها لم يسبق وأن أخطأ

قامت من مقعدها لتتّجه ناحية الباب من أجل الخروج من الغرفة والبحث عن الشرطي أو الضابط ذو الوجه الذي كان على تلك الصورة

عليها إيجاده واستعجاله، صحيح أن الشرطة لن تترك مشاغلها من أجل شخص واحد مثلها لكن عليهم الاسراع، العصابة قد تصل لها في أي لحظة، وعندها لن تضمن بقاءها على قيد الحياة حتى

أخذت تسرع بخطاها وهي تتجوّل بأنحاء الطّابق باحثة عنه إلى أن لمحته بإحدى الزّوايا المنعزلة

سارعت التقدّم ناحيته لكنّها توقّفت فجأة وكلّ كلمة قالها في هذه اللّحظة اخترقت مسامعها
«حسنا سيد جوزيف سنحتجزها ريثما تصل، الولاء للأوركيد»

ما هذا؟ ما الّذي يحدث؟ هل يعقل أنّ ما سمعته صحيح؟

تراجعت للخلف بضع خطوات غير مصدّقة لما سمعته توّا

أوليس من المفروض أن تكون الشّرطة أكثر الأشخاص وفاءا لعملهم ووطنهم؟
أوليس من المفروض أن يكونوا مستعدّين للتّضحية بأرواحهم من أجل سلامة المواطنين؟
لكن لما ما يحدث الآن يثبت عكس اعتقاداتها؟

رفعت يدها لتشدّ على موضع قلبها بيأس وخوف يكاد يمزّق شراينها

ماذا عليها فعله الآن؟
كيف ستستطيع العودة لديارها؟
لقد أُغلِقت كلّ أبواب النّجاة بوجهها

تراجعت للخلف فور ما رأت الضابط يعود أدراجه بعدما أنهى مكالمته مع جوزيف، والذي يبدو وكأنه عضو من العصابة

استدارت وسارعت في الابتعاد عنه لأجل ألّا يكتشف أمر تجسسّها على مكالمته
أخذت تسير بعيدا عنه وعقلها منشغل في البحث عن حلّ يخرجها من هذه المصيبة الجديدة
متأكّدة من كونها ستفشل، كلّ الطّرق تؤدّي إلى عودتها لتلك العصابة، لن تستطيع الإفلات من أيديهم النتنة
دون أن تستطيع التحكم بنفسها تجمّعت الدّموع بعينيها، لقد تعبت، تشعر بالضياع القاتل

وسط لحظات انهيارها الأولى جذب انتباهها لافتة حمّام النّساء، توقفت لثوان قبل أن تسارع في دخوله وإغلاق الباب خلفها

رغم دقّات قلبها المتسارعة، رغم فوضى المشاعر المبعثرة، رغم تمنّياتها البائسة إلا أنها لن تستسلم، ثقتها بالله كبيرة، هي ستهرب وستجد حلا بالتأكيد!

أخذت سوسن تتأمّل المكان، ككلّ الحمّامات العامّة، الكثير من المراحيض المصطفة أمام بعض بشكل مستقيم، تقابلها مرايا وأحواض غسل الأيدي، إضافة إلى أجهزة تجفيف الأيدي والمناديل الورقيّة المعلّقة على الجدران

وسط كل هذا جذب انتباهها النافذة الّتي تتوسّط الجدار المقابل لها، وسرعان ما خطت نحوها
إنه سبيلها الحالي للنّجاة، كل ما عليها هو القفز وإطلاق العنان لقدميها من أجل مسابقة الرياح

لكن سرعان ما أمالت فمها بعبوس بعد رؤية الاطلالة أسفل النافذة، لقد نسيت تماما أنّها في الطابق الثّاني

يا للمسافة الكبيرة الّتي تفصلها عن الأرض، لا شكّ في كونها ستنكسر إذا قفزت من هنا، وعندها ستخسر في مسابقتها مع الرياح

بعيدا عن المسافة فالنّافذة تطلّ على الجانب الخلفي للمركز، و رغم كونها تستطيع رؤية العديد من المتاجر والمنازل، إلّا أنّ رجال الشرطة يملؤون المكان

من الطّبيعيّ أن يلاحظها أحدهم ويشكّ في أمرها إذا قامت بالقفز، قد يعتقد أنّها مجرمة تحاول الفرار، خاصة مع زيّها الغريب الّذي ترتديه

حسنا على الأقل تبدو كالمتسوّل أكثر من كونها مجرمة

تراجعت للخلف بضعة خطوات مفكرة بتردد، ربما عليها محاولة التسلل لباب المركز أو لنافذة مكتب بالطابق الأول

إلا أنها سرعان ما انتفضت فور سماعها للفوضى الّتي حدثت فجأة بالجانب الآخر من الباب، لقد انتبهوا على اختفائها

وسط رعبها تأخذ نفسها عميقا علّه يهدّئ وينعش أعصابها، لا يجب عليها الخوف، إنّ الأمر واضح كوضوح الشّمس، ببساطة هم يقتربون منها فما عليها إلا الابتعاد عنهم، ستقفز وليحدث ما سيحدث

تقترب من النافذة التي لا تبعد عن الأرض سوى بضعة أمتار كافية لتكسير عظامها ألقت نظرة على الجوار بحثا عن شيء مفيد تستطيع استعماله من أجل القفز دون أن تتأذّى

ابتلعت ريقها فور رؤيتها للشجرة، إنها ضخمة نوعا ما وقريبة قليلا إلى البناء

ربّما لو قفزت ناحيتها قد تستطيع التعلّق بأحد فروعها، إنّها وسيلتها الوحيدة

دون تردد ضغطت بيديها على جانبي إطار النّافذة لتقوم بالصّعود عليها و الجلوس على حافتها على شكل القرفصاء

أخذت كميّة كبيرة من الهواء لتنعش رئتيها بينما دقات قلبها زادت سرعة فور سماعها صوت الضجّة الّتي أصبحت أكثر وضوحا وقربا منها

لن يستغرقوا الكثير من الوقت من أجل إيجادها

ابتلعت ريقها بصعوبة للمرّة الألف وهي تهيّئ جسدها وعقلها من أجل القفز

..3..2..1..

دفعت بجسدها للأمام لتقوم بالقفز أخيرا لكنّها فشلت في الوصول إلى كامل الشّجرة، إنّها الآن معلّقة في الهواء، لا شيء يمنعها عن السّقوط سوى الغصن الّذي استطاعت يدها التمسّك به

حاولت التّشبّث به بكامل قواها لكن من دون جدوى
إنّه جدّ ضعيف، ستسقط

أفلتت صرخة مرتعبة من فمها فور انكسار الغصن
وسرعان ما أغلقت عيناها بضعف وهي تتهاوى للأرض

تمنّت توديع عائلتها قبل موتها، لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، انها النهاية، هي لم تقرأ الشهادة حتى

*

هاسلاند
الميناء بالضفة الغربية، ما بعد الظهيرة

يغطي فارس فمه إثر تثاؤب طويل بسبب عدم نومه جيدا الليلة الماضية، عاش أحداثا حماسية انتهت برمي نفسه من على الجسر .. الشكر لله ثم لبحر دولة الحسناء الذي يجعل المواطن هناك محترف سباحة رغما عنه ..

وبعد كل هذا قضى أغلب الليلة في دراسة ما استطاع تصويره من المعلومات الهامة عن العصابة وإعلام رئيسه إلياس بها

يبتسم بحماس لم يستطع الإرهاق إخفائه، يبدو أن الأيام القادمة ستكون مليئة بالمغامرات، أيتها الأوركيد، أنت في طريق الدمار

يطلق ضحكة صاخبة ليكمل قيادة قارب متوسط الحجم يحتوي على كمية كبيرة من المواد الممنوعة، والتي كان من المقرر هذا اليوم إرسالها من طرف عصابة الأوركيد إلى صديقتهم عصابة هوشي الواقعة في دولة أخرى، لكنه استطاع التسلل على الرابعة صباحا لمينائهم بالضفة الشرقية وتهريب كل شيء إلى هنا

يتثاءب مجددا ليحك عينه المتضررة من استعماله الطويل للهاتف، يلقي نظرة على ساعة يده، لقد حان الوقت

يترك عجلة القيادة، يُخرِج من حقيبته القنبلة الموقوتة ليركبها بين حزم المواد الممنوعة، يسرع ناحية زورق النجاة، ينزله على المياه ويصعد عليه، يبدأ في التجديف مبتعدا بأسرع ما يمكنه عن القارب الذي يكاد ينفجر

بوم، هذا ما سيسمعه بعد أقل من دقيقتين، سيتلف كل شيء، الكمية الضخمة ستصبح رمادا، وستكون العصابة في مأزق كبير، هم لن يقدروا على توفير الكمية ذاتها من المواد نفسها لأنها لا تتواجد بوفرة، وبالتالي لن يستطيعوا إرسالها لعصابة هوشي في الوقت المحدد مما سيجعل الأخيرة غاضبة للغاية

في الواقع هما ليسا بصديقتين جيدتين، كما أن ماضيهما لا يبدي أدنى خير، طالما كانت الصراعات قائمة بينهما، لكنهما قامتا بهدنة مؤخرا، حسنا لقد حان موعد إفساد كل شيء وإيقاظ الأحقاد مجددا، العالم بحاجة لبعض المتعة

يكاد يصل للميناء، إلا أن إطلاق رصاص مفاجئ يصدر من الخلف، يستدير ليبتسم بسخرية فور رؤيته لمجموعة القوارب التابعة للعصابة، الفاشلون، لقد وصلوا متأخرين

يحاولون إصابته لكن لا جدوى، يطلق فارس قهقهة عالية فور انفجار القارب المزامن لوصوله لبر الأمان، ليقفز للميناء ويتأمل صدمتهم، أحسنت فارس أنت رائع، الشيء المريح أن البحر خال من أي نشاط للمواطنين بسبب المهرجان السنوي القائم هذا اليوم

«هيه أنت، سأفرغ ذخيرة مسدسي في جمجمتك»

الجملة تصدر من عضو العصابة الذي فاجأه بالظهور من موقف السيارات الذي خلفه ومعه رفاقه، كيف لم يلاحظهم؟

يركضون نحوه بينما الأسلحة تأخذ مكانها بين راحة أيديهم ليطلق هو الآخر العنان لأقدامه راكضا هربا منهم، بئسا كيف لم يتوقع أنهم سينتظرونه في اليابسة أيضا، أحيانا تفوته أمور بديهية وهذا قد يؤدي يوما إلى فقدان حياته

يخرج من الميناء منطلقا نحو المسار الوحيد المتوفر أمامه، الطريق إلى وسط المدينة، مكان تجمهر الناس احتفالا بالمهرجان، يتوغل بين الجميع، يُسقِط أحدهم ويدفع الآخر، يقدم اعتذاراته بصوت مرتفع، لا يريد إزعاجهم لكن حياته على المحك، جماله سوف يُدمَّر تحت أقدام الوحوش المنطلقة خلفه

وسط هربه يصطدم فجأة بجسد امرأة راكضة، تُضرَب رؤوسهما بقوة، يتحسس جبهته بألم، هذه المرأة ليست طويلة القامة وحسب بل رأسها قاس أيضا، لكن ما الذي يجعلها تركض هكذا، لا يظن أنها مطاردة من عصابة مثله فلما هي مستعجلة، يا للإزعاج

يرمقها بغيظ قبل أن يكمل هربه، لكن سرعان ما يهمس مصدوما من شكلها المألوف: «سوسن؟ أهذه أنت؟!»

«فارس؟ لا أصدق هذا، إنه أنت، أنقذني رجاء، العصابة تلاحقني»

تصيح سوسن بها فور استيعابها لهويته، ينظر الأخير لها بضياع، ما الذي أحضرها إلى هنا؟ أليست في الحسناء تدرس لامتحانات جامعتها؟ لكن لما تقول أن العصابة خطفتها؟ كان سيظن أنها تمزح لولا هيئتها البائسة

وسط حيرته توقظه أصوات طلق الرصاص لتعيده للواقع، إنه ملاحق، يرمق سوسن بشفقة ليقول قبل أن يكمل ركضه: «آسف»

يكمل هربه تاركا إياها واقفة بذهول، بينما يشعر وكأن قدما عملاقة تضغط على قلبه وتطحنه

*

بوريزا
في مكان ما

أسفل النافذة مباشرة، ترفع رأسها محدقة بالنافذة بثبات، صحيح أنها بدينة، لكن لم تتخيل يوما أنها ستستخدم كسلم، ذاك الهزيل صعد عليها للوصول للنافذة والفرار، لقد نجح الأمر، وقال أنه سيجلب وسيلة لإخراجها، وقبل أن تسأل عن ما يفكر فيه كان قد غادر بالفعل

تضم يديها لتفركهما على ذراعيها العاريتان، إضافة إلى ذلك فهو أخذ سترتها الصيفية، إنها تتجمد هنا

تعتليها ملامح قلقة، لكن ماذا لو خدعها واستغلها، والآن ذهب ولن يعود، ليس وكأنها كانت تملك خيارا آخر، الباب مغلق بالفعل ولا مخرج غير هذه النافذة

وسط شكوكها يفاجئها حبل من الملابس المربوطة يرمى من هذه الأخيرة، ليطل ذؤيب مستعجلا إياها: «تخيلي أنها مسألة حياة أو موت واصعدي بكل ما أوتيتي بقوة»

بفرحة غامرة تهمس والدموع تتغلغل بعيناها: «إنها مسألة حياة أو ممات بالفعل!»

*

ركض، ركض، والمزيد من الركض، البناية التي كانا بها موجودة بهذه الغابة الوسيعة الكثيفة، ومن حسن الحظ ذؤيب يعرف طريق الخروج

ممسكة بيده لكي لا تضيع وسط الظلمة، ولكن سرعان ما أخذ يقلص سرعته، ليقف، يضغط على يدها دون إدراك منه، ترى على وجهه نظرة فزعة وهو يلتف بنظراته حول المكان، تفعل المثل متوقعة مشاهدة منظر مريع لكن لا شيء غير الكثير من الأشجار، وظلمة حالكة لا يكسرها شيء غير نور القمر الذي راح يختبئ خلف السحب

«علينا الإسراع قبل أن يختبئ النور أكثر، هل الطريق الرئيسي لازال بعيدا؟»

تخاطبه ضياء مربتة عليه بقلق، منذ أن خرجا من البناية والارتعاش لا يفارقه، والآن إنه يزيد، أكل هذا بسبب خوفه من الخاطفين؟ لكنه كان هادئا بالفعل عند سماع خططهما للقضاء عليهما

«إنه هنا، في كل مكان»

يتمتم ذؤيب بها بعدما جثا أرضا ضاغطا على رأسه بكلتا يديه

«هل أنت بخير؟»

«ان كنت تريد الانتقام فاقتلني، افعلها وأرحني»
لا يجيبها، بل يصرخ على إحدى الأشجار، وكأنه يخاطب شخصا لا يراه غيره

«علينا الوصول للطريق الرئيسي قبل أن يلحق الخاطفين بنا»

بعد صياحها يبدو وكأنه عاد جزئيا للواقع، يجيبها: «أكملي الركض بشكل مستقيم ستجدين أشجار مطلية بالأبيض، إتبعيها وستصلين، عندها اطلبي المساعدة من إحدى السيارات المارة»

«ماذا عنك؟»

«سأبقى هنا»

«هل جننت؟!»

تهتف باستنكار، ليتجاهلها مستمرا الضغط على رأسه، متكلما بنبرة حانقة وكأنه عاد لجنونه: «بئسا، مللت من كل هذا، كيف لك أن تجعلني أشعر بكل هذا القرف بسبب وضيعة كتلك»

يرفع نظره نحو جزء من الغابة مخاطبا الغريب الذي لا تراه: «أنا لست نادما على ما فعلته، لو عاد بي الزمن سأفصل رأسها عن جسدها دون تردد أيها الأخرق، هي لم تستحق ذاك الوفاء منك»

يستمر في الصراخ بكلام لا تدرك ضياء معناه، تستطيع فعل ما قاله والهرب بمفردها لكنها لا تقدر، إنه منهار، لابد من أنه يعاني من مشاكل نفسية، لن تدع نوبة فزعه أن تتسبب في إنهاء حياته، ليس بعدما ساعدها

«انهض وكف عن هذا الجنون»

تسحب ذراعه محاولة إنهاضه، لكنه يدفعها بشراسة لتسقط أرضا: «ابتعدي، لابد من أنك شيطان أرسله راشد، لن تشعريني بالذنب فلا تحاولي»

تتأوه بألم من الحجارة التي جرحت ركبتيها، تعاود الوقوف لتسحبه مجددا، يعاود إبعادها لكنها تقاوم هاتفة: «أتظن أن سلطة البدانة ستخسر أمام هزالتك هذه؟! جسمي لا يحتوي على دهون خالصة بل على عضلات أيضا»

يشتمها بكلمات لم تسمعها من قبل من كثرة سوئها لكنها لا تتوقف، يسحب شعرها لتفعل المثل معه مستمرة في الصراخ والدموع تنهمر منها بضيق: أبله، مجنون، إن كنت غير نادم حقا فلما تفضل الموت، هذا شكل من أشكال الهزيمة، أتريد من تلك الوضيعة أن تفرح؟ استسلامك لن يكون سوى بلسما لها

لا تعلم من الوضيعة ولا الموضوع الذي يدور بذهنه لكنها تحاول استغلال ما سمعته من هلوسته، تستمر في الصراخ عليه، لتتلاشى مقاومته تدريجيا، تظن أنها نجحت لكنه يتمتم بهمس: «لكنه يستمر في محاولة الانتقام لها، لن يتركني وشأني مهما حاولت الهروب منه»

«إذا لم تستطع إيقاف شخص ما عند حده عن طريق الهرب فما عليك إلا مواجهته وتسديد لكمة مباشرة على وجهه تفقده ذاكرته، حينها سيتركك وشأنك»

ترد عليه بحنق لتردف وملامح شرسة تعلوها بينما تمسك ذراعه ساحبة إياه: «والآن فلنكمل ركضنا، لست مستعدة للموت بعد، لم أكمل حفظي للقرآن حتى ولم أبني مسجدا أجعله صدقة جارية لي بعد وفاتي!»

*

هاسلاند
ليلا بشقة أحدهم

يمسك المنشفة ليجفف شعره المبتل، يرمي بجسده على الأريكة، ويشغل التلفاز على قناة الأخبار، التي تبث إعادة لتصوير فترة العصر

«ها بهاسلاند تشهد مجددا عبثا من طرف عصابة الأوركيد، مباشرة من موقع الحدث، وسط المدينة يشهد تحول أجواء المهرجان المبهجة لأخرى دموية، مقتل بعض الأشخاص وإصابة الكثيرين، إضافة لنوبة جزع أصابت الجميع، كل هذا كان أثناء عملية هرب أحد المجهولين من أفراد عصابة الأوركيد انتهت بطلق النيران بشكل عشوائي، والآن معكم أحد الضحايا»

يلفظ المذيع كلمته واضعا يده على كتف الطفل البائس الموجود معه مناولا إياه الميكروفون، ليمسكه الأخير ويبدأ في الحديث بحدة انعكست على نبرته الغاضبة:

«أنا نيكولاس، جئت رفقة أبي للسياحة في هذه البلدة، كل ما أراده كلانا هو بعض المتعة كأي أب مع ابنه، لكن...»

يردف ولمعة عيناه الزرقاوتين تحمل حقدا لم يسبق له وأن شاهده فارس، والذي تجلى بوضوح رغم خصلات شعر نيكولاس البيضاء الطويلة المنسدلة على عيناه

«لكن أولئك الأوغاد قتلوه بدم بارد، أطلقوا عليه الرصاص دون النظر في وجهه حتى، مات ولم ينتبه أحد له، بئسا لهم، بئسا لمن كان السبب في ما حدث، أقسم أني سأنتقم لدم أبي المهدور»

يطفئ فارس التلفاز ليستند للخلف رافعا رأسه نحو السقف، نظرة هذا الطفل الحاقدة، نظرة سوسن الطالبة للنجدة، نظرة أبيه الواثق به

كل هذا يتجسد أمامه ليبدأ في التفكير، هل هو يسير حقا في الطريق الصحيح؟ هل ما يتخذه من قرارات صائبة أم لا؟ يريد القضاء على هذه العصابة وتخليص العالم من شرورها لكن هذا جعله سببا في أذية أناس أبرياء، الغاية نبيلة لكن النتائج تحمل بعض السواد، بل الكثير منه

لا يصدق أنه تسبب بمقتل كل هؤلاء المواطنين، كما أنه تجاهل فردا عزيزا من عائلته وتركته غارقا مع ضعفه وقلة حيلته، النظرة المشفقة التي رمق سوسن بها لم تكن شفقة عليها بقدر كونها شفقة على حاله

يقاطع تفكيره وصول رسالة إلكترونية من إلياس تحتوي على حيثيات المهمة التالية، يقرأها ليعتدل في جلوسه ممسكا الحاسوب

لا بأس، عليه أن يكمل ما بدأه، سيقضي على العصابة ورئيسها، عليهم التجرع من نفس الكأس الذي أذاقوه إياه سابقا، حتى لو عنا هذا توديعه لبعض من إنسانيته

*

الفصل الرابع

[قبل سنوات]

السماء الصافية، الشمس ذات الأشعة البرتقالية والتي تكاد تودع المكان وتخلد للنوم، القليل من الهواء المصطدم بأوراق الشجرة التي تجلس تحتها والصوت الذي يستمر في ترديد اسمها آبيا الاستسلام

«رؤى وجدتك!»

وسط دموعها، ترفع رأسها لتحدق بالمتحدث، أول بشري تراه بعد الساعات الطويلة التي قضتها في تأمل حشائش الأرض وسط بكائها، تزيد عبوسا دون الرد بأي كلمة لتنوي العودة لإخفاء وجهها واستكمال موجة نواحها إلا أن الفتى يحضن وجهها براحة يديه ويمسح آثار الدمع معلقا: «كيف تنوين الاستمرار في البكاء بينما خزان دموعك يجب أن يكون قد جف بالفعل؟»

قبل أن تجيبه بانزعاج يردف ممسكا يدها: «والآن هيا معي والداك يبحثان عنك»

«اتركني وشأني، أنت كاذب، هما لم ينتبها على أمر اختفائي حتى، كل ما يجيدانه هو الشجار وإفساد كل شيء»

تجيبه صارخة لتفلت يده، ويعود سيل دمعها لشق طريقه مردفة بنحيب: «لقد أفسدا حفلة ميلادي أيضا، إنهما لا يحبانني ولا يهتمان لشأني»

«لكنني أفعل»

بامتعاض تعود للنظر نحوه مستنكرة هذا الرد، ليكمل حديثه ممسكا بالتاج الملقى جانبا ليعيده لمكانه على رأس رؤى: «ألستِ أميرة؟»

تهز رأسها بالايجاب جاهلة مقصده، لكنه يجيبها بابتسامة واسعة تظهر بياض أسنانه الأشبه باللؤلؤ ولطف شديد يملأ نظراته التي تعلو عيناه ذات المزيج الساحر من الأزرق والرمادي: «إذا كل ما تحتاجينه هو أميرك، كما يحدث تماما في القصص والرسوم المتحركة»

بيديها الصغيرتان تمسح دمعها سائلة باستغراب طفولي: «لكن من هو أميري؟»

يشد يدها ويرفع جسدها مجيبا بضحكة: «ألا يستوفي هذا الذئب المقابل لك معايير سيادتك؟»

.
.
.

عودة للحاضر
بوريزا

«عزيزي! كيف لأولئك الأوغاد أن يفعلوا بك هذا! أقسم أني سأجعلهم يتعفنون خلف قضبان السجن»

يرفع نظره للمرأة التي اقتحمت المكان دون إذن بهدوء، امرأة فاتنة ذات شعر أشقر حريري، عيون ملونة وقوام ممشوقة، أما هندامها فلا داعي للتركيز عليه، فكما هو متوقع، كلمة "مثالي" الوصف الوحيد الذي يليق به

رؤى، لازالت على حالها المعتاد، أميرة العائلة المميزة

«لا تغضب علي عزيزي أردت العودة للبلاد فور سماعي لما حدث معك لكن جدي شرط علي اكمال اختباراتي، أعذر أنانيتي وضعفي»

تخاطبه برجاء صادق بعدما جلست على حافة السرير ضاغطة على يده، وقبل أن تتحدث بالمزيد يلج أمزيان الغرفة حاملا مجموعة من الملفات، قائلا فور رؤيتها: «تحياتي آنستي»

أما رؤى فتعلق بانزعاج: «ملفات؟ أستجعل عزيزي يعمل في هذه الحالة حقا؟ ما هذا الاهمال!»

«أظن أن الاهمال الحقيقي هو تحقيق غاية الخاطفين ومنع السيد من العمل أثناء هذه الفترة الهامة»

رد أمزيان المنطقي لم يزد رؤى إلا غضبا واستنكارا، تبدأ في المشاجرة، كيف لشخص لم يمر على خطفه سوى أسابيع أن يمارس حياته بشكل طبيعي؟ إنه بحاجة للعناية الجسمية والنفسية فقط

أما أمزيان فلم يناقشها أكثر وفقا لإيماء ذؤيب من أجل اِلتزام الصمت، الجميع يدرك أنها لن تقتنع بأي رأي يخالف قناعاتها الشخصية، لذا ترك أمزيان الملفات وغادر مباشرة، أما رؤى فلم يجعلها تهدأ شيء غير صوت ذؤيب المنادي: «رؤى»

تصمت لثواني محدقة فيه مستوعبة وقع حروف اسمها على لسانه قبل أن تجيب: «نعم؟»

«أيمكن لأميرتي تحضير غداء سحري يساعد أميرها المريض على الشفاء؟»

دون أدنى تردد قامت بابتسامة تشق وجنتيها من فرط السعادة مجيبة بحب: «بالطبع عزيزي، عزيزتك ستعود بألذ طبق في العالم»

وبعدها كانت قد غادرت الغرفة، أما هو فأطلق زفيرا طويلا هامسا: «كم هذا مزعج»

ويردف بامتعاض أشد فور رؤيته من النافذة الملاصقة لسريره تلك الشابة الحاضنة لمجموعة من الكتب مبادلة أطراف الحديث مع أمزيان الذي وصل للأسفل بالفعل: «وهذا المنظر أشد إزعاجا»

طيلة سنواته الخمسة والعشرين، لا يذكر أن أمزيان حمل تعابير كهذه على وجهه، إنه متحمس، وهذا الذي من المستحيل أن يكون عليه شخص مثله، جلمود ضخم، كل ما اعتاد فعله هو التنفس، الأكل، الهوس بالرياضة ومشتقاتها، والعناية المفرطة به

لكن خلال الأيام الكثيرة الماضية لاحظ تردده الكبير على ضياء، مستمرا في قراءة الكتب التي تحضرها له والجلوس على طاولة الشاي مبادلا الأحاديث كشخص طبيعي، و هذا غريب

بعد لحظات، خرجت ضياء من المنزل أما أمزيان فيدخله، تلك الفتاة، ظلت تتردد للاطمئنان عليه لكنها توقفت منذ اللحظة التي رمى عليها مزهرية زجاجية وكاد يهشم وجهها، أثناء إحدى نوباته الكثيرة

يمسح على وجهه، كان سيشعر بتأنيب الضمير، لكن هذا أفضل، لا يريد شيئا أن يجمعه بها، رغم معزة عمه لديه إلا أنه رمى طلبه في العناية بها عرض الحائط، طفلة ثرثارة محلقة في حياتها الحالمة، كلما يتذكر وصفها له بالجبن يشعر بالهيجان، هو ليس جبان مهووس بالاختفاء

النوبات التي تلت حادث الاختطاف، ظلام الغابة الدامس فتح المزيد من الأبواب أمام تلك الذكرى، وجه راشد رفض تركه، حتى بعدما وصلا للطريق السريع واستطاعا إيقاف سيارة عابرة أوصلتهما لمركز الشرطة، لم تمر ساعة حتى قبل أن ينهار مجددا

يمسك الملفات، وقبل قراءتها يلقي نظرة على أنحاء الغرفة، الحائط الرمادي لا يحمل ذاك الوجه اللئيم، ليس حتى هذه اللحظة على الأقل، استغرق شهرا كاملا من الجلسات العلاجية لتجاوز التجربة السيئة

لكنه يتساءل، هل تجاوزها حقا؟

«الذئب، ألم تسمعني؟»

يوقظه من وسط أفكاره صوت أمزيان، متى عاد إلى هنا، يرمقه ذؤيب بانزعاج ليعيد أمزيان قوله: «سأخرج لبعض الوقت، سأطلب من رفيقي حراسة المنزل ريثما أعود»

«إلى أين؟»

يرمقه أمزيان بعدم استيعاب لثوان، منذ متى كان ذؤيب يهتم؟ يجيبه بعدما رأى ملامحه الحادة وهو يعيد استفساره: «إلى مكان قريب»

«سآتي معك»

مرة أخرى، لم يستوعب أمزيان ما سمعه، هل ذؤيب مهووس الاختباء يقرر الخروج من قوقعته أخيرا؟

*

بوريزا
على بعد أمتار من المنزل الريفي أمام المكتبة

"كم أكره أبي، بالرغم من علمه بكل ما جرى إلا أنه مستمر في تركي هنا، لا أظنني سأتحمل أكثر"

وسط سيرها تتصفح الهاتف بعبوس، عيناها مثبتتان على آخر رسالة كتبتها لأخيها الأكبر سعود، تعض طرف شفتها، لقد مرت أيام على إرسالها لكنه لا يجيب، تسأل ريان لتصلها إجابته

"أوه، إنه مشغول بعض الشيء مع أعمال المتجر لا تقلقي"

حتى الشخص الذي ظنت أنه سيهتم مشغول مجددا، عندما تراه ستجبره على اشتراء كيلو من حلوى الكراميل كاعتذار على إهماله هذا

تعيد الهاتف لجيبها فور وصولها للمكتبة، ترجع الكتب التي استعارتها من أجل أمزيان، وتختار كتبا أخرى، تشعر بالسعادة لفضوله حول دينها، باتت في كل صلاة تدعو له بالهداية، تتمنا أن تشعر أنستازيا والجدة سارا بهذا الفضول أيضا

في طريق خروجها تعود للتفكير، والآن ماذا عليها فعله؟ لا تعلم متى سيتفرغ سعود لإقناع والدها بإرجاعها، الإجازة الصيفية على وشك الانتهاء، هل عليها التقديم للدراسة في مدرسة القرية ريثما تحل الأمور؟

وماذا عن الخاطفين؟ ما الذي يضمن لها عدم عودتهم مجددا؟ لا تريد تذكر التجربة التي مرت بها، صحيح أن حالتها لم تكن بسوء حالة ذؤيب لكنها ظلت ترتعش لليالي طويلة وترتاب من أي صوت خطوات يقترب من غرفتها، أما الشيء الأسوء هو أن والدها لا يهتم

لقد اتصلت عليه بالفعل، أخبرته بكل ما حدث، بكت وانهارت، لكن كل ما قاله هو أن عليها نسيان ما حدث فقد كان مجرد حادث

في تلك اللحظة التي سمعت ما تفوه به لم تستطع استيعاب الإحساس الذي غمرها، أكان حزنا أم شفقة على الحال الذي آلت إليه الأوضاع؟ تركها في مكان غريب ذو محيط خطر، أحقا يفضل هذا على جعلها تعود؟

ربما حقا عاد لمقتها كما كان في السابق

يوقظها من موجة أفكارها السامة الجسم الذي اصطدمت به عند عتبة المكتبة، تسقط أرضا لتتناثر الكتب، تتأوه متوجعة، أما لسانها فيكاد يطلق شتيمة، وسط حالتها المزاجية السيئة لم يكن ينقصها سقوط كهذا

تحاول الوقوف مجددا وسط اعتذارات متبادلة بينها وبين الرجل الذي اصطدمت به، يساعدها على جمع ما سقط منها ليعتذر مجددا بأسلوب لبق قل ما تراه في البيت الذي تعيش به، لكن كان هذا ليكون لطيفا لولا عيناه التي تمعن النظر فيها، يا للقرف، ربما هو زير نساء

«أيمكنني السؤال عن اسمك آنسة؟ في الواقع...»

قبل أن يكمل تقاطعه باشمئزاز متأكدة من توقعها: «اعذرني لكنني متزوجة»

يرمش لثوان باستغراب، لتكمل ضياء تقدمها دون انتظار رده لكنه سرعان ما مد يده محاولا إيقافها: «انتظري رجاءً، أنا لم أقصد...»

ترمقه بحدة، ليست في مزاج يسمح لها بتحمل هذا المزعج، كما أنها لا تريد الدخول في شجار جسدي معه، مع أن هذا الخيار سيبدو جيدا لتفريغ طاقتها السلبية

تحرك نظراتها سريعا حول المكان لتقع عيناها على مجموعة شباب من أهل القرية، تبتسم داخليا بسخرية قبل أن تنادي: «يا إخوة!»

تردف وسط دهشة الرجل الغريب: «رجاءً ساعدوني، هذا الرجل يرفض تركي وشأني»

يبعد الرجل يده عن طرف ثيابها بصدمة مدافعا عن نفسه: «لحظة، لقد أخبرتك بأن نواياي ليست سيئة، كل ما أردته...»

مجددا ترفض سماعه وتسرع للهرب فور رؤيتها للمجموعة تتجه غاضبة نحوه، تشعر ببعض الأسف لكنه خطؤه، لا يوجد شخص في هذه الأيام يوقف أحدا بالتشبث بطرف ثيابه

*

بوريزا
في الجهة الأخرى من القرية

مسجد بسيط، رغم أنه ليس وقت الصلاة إلا أن هناك من يصلون، كما أن هناك من يجلسون منشغلين بتلاوة القرآن، حتى الأطفال هنا، معتمرين القلنسوة مرتدين الأقمصة، يجلسون في حلقة يترأسها شيخهم الذي يلقنهم الآيات ليحفظونها

يرمي ذؤيب المكان بنظرات استغراب، ما الذي قد يجلب أمزيان إلى هنا، إنه نصراني وهذا المكان ليس مخصصا له

يثبت نظراته عليه، سيرا ما ينوي فعله، أما الأخير فيلف المكان لهنيهات قبل أن يتوقف عند أحد الجالسين المنشغلين بالتلاوة

«عذرا»

يتوقف الآخر عن قراءته مجيبا أمزيان: «نعم هل أساعدك بشيء؟»

«أبحث عن شيخ الجامع، أود استفساره حول بعض الأمور»

يشير إلى أحدهم منشغلا بترتيب المصاحف في خزانتهم المخصصة: «الشيخ منشغل حاليا لكن ذاك نعمان، قد يجيبك، أظنه يستطيع مساعدتك»

«حسنا شكرا»

يتجه أمزيان نحو نعمان أما الجالس فيعود للانشغال بمصحفه، بعد التركيز عليه فهو يقرأ الآية ليعيدها محاولا نطقها بشكل أسهل، يبدو أنه ليس معتادا على تدبره

بعد تمعن النظر فمنظره يؤكد على هذه النظرية

يميل ذؤيب فمه بسخرية، ما الذي يفعله شخص مثله هنا؟ هذه التسريحة والندوب، لابد من أنه أحد الشباب السيئين، أيحاول أن يبدو شخصا صالحا الآن؟

يرفع الأخير نظره نحو ذؤيب لتحتد ملامحه، وكأنه قرأ ما كان يفكر به، أما ذؤيب فيبادله النظرات المستهزئة قبل أن يتبع أمزيان

يقف بجوار أمزيان الذي أخذ يتحدث مع نعمان، والذي لم يتردد في إجابته، جلس ثلاثتهم، أخرج أمزيان ورقة دوّن عليها بعض الأسئلة سابقا، وأخذ نعمان يجيب، شارحا له ما يريده، مع توضيحات أخرى يذكر فيها جمال الاسلام

«أمزيان، ما الحمق الذي تفعله؟»

يريد سؤاله لكنه يلتزم الصمت مستمعا بعدم اهتمام، لم يتخيل يوما أن أمزيان سيهتم بهذا الجانب، طالما كان ووالدته نصرانيان ملتزمان، لو تعلم سارا بما يحدث هنا فستجن

يظنه مجرد فضول لكن تعابير أمزيان المركزة تنفي اعتقاده، حسنا، ربما هي موجة فضول جامحة لا غير

«أي أسئلة أخرى؟»

يسأل نعمان بابتسامة بشوشة ليهز أمزيان بالنفي ليردف: «أتمنى أن يهديكما الله للإسلام ونراكما رفقتنا في تراويح رمضان القادم»

يرفع ذؤيب حاجبه معلقا: «أنا مسلم بالفعل»

«أحقا؟ لم نرك يوما بيننا في المسجد لهذا ظنناك كافرا»

يقاطعهم تعليق الشاب السابق بعدما أتى ليعيد المصحف للخزانة، لينهره نعمان: «قيس انتبه لألفاظك!»

أما ذؤيب فيقف مجيبا باستهزاء: «من يسمعك سيظن أنك نذرت نفسك للدين منذ نعومة أظافرك»

يفهم قيس مضمون رد ذؤيب، ليقطب حاجبيه: «التائب لا يعيب بماضيه في ديننا، إنه جاهل يبذل جهده في التعلم»

ويردف بنظرات احتقار مقتربا من ذؤيب: «لكن أتعلم ما يفوق الجهل سوءً؟ هو التجاهل، أن تملك البوصلة لكنك تفضل الضياع على استعمالها»

قبل أن يسوء الوضع أكثر يبعدهما نعمان وأمزيان عن بعضهما البعض، يرمي ذؤيب نظرات حادة قبل أن ينوي الذهاب خارجا لكن أمزيان يوقفه: «ذئب انتظر لحظة»

ثم وجه كلامه لنعمان بلكنة جادة: «رجاءً أخبرني كيف أصبح مسلما؟»

*

"سلام، لا تنسى إيصالي بالغد لمنزل ذئبي، تركي لا يزال يرفض إعادة السيارة لي، ياله من المزعج"

يقرأ سلام رسالة رؤى ليجيبها بالقبول، ليس تركي .. أخوهما الأكبر .. الوحيد الذي يرفض علاقتها هذه، لكنه بخلافه لا يستطيع الرفض علانية، يعلم مقدار عشقها الجنوني لذؤيب، يتمنى أن يعجل الجد في زفافهما ويريح قلب أخته

قبل أن يعود لعمله يتحسس جراح وجهه، تلك الشابة جعلت منه كيس ملاكمة لأولئك الشباب، يحمد الله على الأضرار القليلة التي نتجت عن ذلك، كان سيكون كارثيا أن يعاني من كسور وسط فترة انشغاله الحالية
للحظات يعود لتذكر تلك الشابة، طيلة هذا اليوم رفضت صورتها ترك أفكاره، نظراتها تلك هزت كيانه، عليه إيجادها في أسرع وقت ممكن

يتجاهل تفكيره المبالغ ليستكمل قراءة المستندات التي أرسلها أمزيان للمرة الثامنة، عمليات احتيال في أنحاء شركة العائلة جاءت من طرف مجهول، لا توجد الكثير من التفاصيل لذا سيكون من الصعب التعامل مع هذه القضية

كما لا يمكن تجاهلها فإرسالها من طرف مساعد ذؤيب تعني أنها من طرف كبير العائلة، الجد هشام، هذا لأن ذؤيب الرئيس الحالي للشركة، هذا المنصب الذي منحه الجد له، بسبب عمله الجاد

في الحقيقة، الطرفان الوحيدان اللذان يستحقان ترأس شركة العائلة هم ذؤيب وتركي، لهذا شجع الجد خطبة رؤى وذؤيب، فستكون سببا في توحيد العائلة وتقويتها

أما بقية الأحفاد فلكلٍ سببه الذي يجعله غير ملائما للرئاسة، فهو مثلا لا تستحوذ التجارة على اهتمامه، وأبناء الابن الأكبر عزام، الذين من المفترض أن يكون أحدهم الرئيس المستقبلي، فالخلاف الذي حدث قبل سنوات كان سببا في استثنائهم من قائمة المترشحين

بالرغم من أن العم عزام قرر مصالحة الجد أخيرا لكنه يتساءل، ما السبب الذي جعله يفعل هذا؟ حتى لو كان الطرف الآخر والده فالخلاف الذي قام ليس شيئا سهل النسيان

ينهض سلام من المائدة ذات السطح المليء بمختلف الكتب والوثائق التابعة للقضايا الموكلة له، هذه الفوضى هي بيئة عمله كمحقق خاص، المسار الذي اختاره بنفسه

يذهب نحو مكتب الحاسوب ليبدأ في تحريك الفأرة والنقر على لوحة المفاتيح، ليؤجل قضية الاحتيال لصباح الغد، أما الآن فلينتقل للقضية الثانية الموكلة من نفس الطرف .. المساعد أمزيان .. وهي التحقيق حول عملية خطف ذؤيب

رغم عدم إمساك المجرمين بعد إلا أن السبب واضح، ما الذي سيعنيه خطف رئيس شركة ضخمة كشركة العائلة قبل الحدث الرئيسي المنتظر بأيام؟ لابد من أن إحدى الشركات المنافسة تريد الصعود للقمة بطرق رديئة

حسنا، من الجيد أن بصمات الخاطفين لم تختفي عن ثياب الضحايا، استطاع أخذها ومطابقتها في ملفات الشرطة الخاصة التي يملك الامتياز لدخولها، لكن لم يكن هناك أي نتائج
يلج إحدى المواقع السرية .. موقع مظلم عبارة عن أكبر تجمع للمجرمين .. سبق وتم اختراق حسابه قبل شهر لذا لم يستطع استخدامه، لكن بعد معاناة مع المختصين في علوم الحاسوب استطاع استعادته

والآن يستطيع البحث عن هوية الخاطفين، رغم عدم تأكده من العثور عليهم هنا فقد يكونوا مجرد خاطفين هواة

الشكوك تتوجه نحو الشركة المنافسة لشركة العائلة، يتمنى أن تكون صحيحة وألا يجد أصحاب البصمات في هذا الموقع، فأغلب من يتواجد هنا يكون تابعا لمنظمة إجرامية خطيرة في الغالب

يعدل جلوسه باستياء فور ظهور الهويتين، رجلين من هوية أجنبية عن البلد، مهمتهما السرقة والسطو منذ سنوات

لصان عاديان من دولة أخرى ما الذي جلبهما إلى هنا؟ هل استأجرتهما الشركة؟ لا يعتقد أن لصوص بوريزا انتهوا حتى يتم جلبهما من بلد آخر

تمر الدقائق يراجع فيها المعلومات التي لديه، ولكن سرعان ما يتصنم مكانه دون أدنى حركة لثوان قبل أن يقف مقتربا من شاشة الحاسوب بفزع، لا يستطيع تصديق ما تراه عيناه، هذان المعتوهان ضمن عصابة الأوركيد؟ جديا!

يكمل بحثه وسط صدمتي، ما الذي قد تريده هذه العصابة الخطرة من ذؤيب؟
المعروف أن الأمور الاقتصادية والسياسية لا تجذبها، اهتمامها يقتصر على السطو والممنوعات وما شابهها لا غير، اختطاف رئيس شركة ذياب ليست بالمهمة التي قد تقوم بها

يحرك الفأرة ضاغطا على إحدى الملفات وسط بحثه لكن تأخذ بعض الصفحات مجهولة المصدر في الظهور بشكل متتابع سريع، يحاول إيقافها لكن سهم الفأرة يرفض السير وفق المسار الذي يريده، لا تقل أنها محاولة اختراق أخرى؟

تتوقف الصفحات عن الظهور لتصله رسالة إلكترونية، يلجها ليقرأ ما كتبه المخترق كما هو واضح

" إنها المرة الثانية التي تعود فيها للظهور، لا أريد تضييع وقتي معك لذا احترس، المرة الثالثة التي تجرؤ على العودة فيها لن يتم اختراق حسابك وحسب إنما كل أجهزتك الإكترونية، التوقيع: المخترق العبقري"

يستند على ظهر الكرسي ليمسح على وجهه بإرهاق شديد: «يا رب أسألك العون»
إنه نفس من اخترقه سابقا، بئسا لك أيها العبقري الثرثار، إنه ليس الوقت المناسب للعبك هذا، من بين مليارات البشر لما اختاره هو؟ ولما يطلق على نفسه مثل هذا اللقب السخيف

*

الفصل الخامس

هاسلاند
صـبـاحـا

«اصبري قليلا ريثما تنقص مراقبة العصابة عندها سأعيدك لبيتك»

كانت هذه الجملة التي قالها ذاك الرجل قبل شهر، تعود ذاكرتها للحظات هروبها من رجال الشرطة، بعد اللحظة التي تجاهلها فارس فيها، أكملت ركضها حينها، إلى أن أمسكها أحدهم وأجبرها على دخول السيارة، كان الرجل الذي أخرجها من زنزانتها سابقا صاحب النظارات السوداء

لقد كان متعبا، صدره يصعد ويهبط بجنون دليلا على ركضه الطويل من أجل العثور عليها، نبرة حديثه كانت ترتعش، لولا الظروف الغريبة لظنته خائفا عليها

ربما كان خائفا من العصابة، لا تعلم ما السبب الذي يدفعه لإتعاب نفسه وإنقاذها، رغم عدم تصديقها الجازم لكلامه إلا أنها لم تقاوم كثيرا، كانت الانكسارات التي وقعت على قلبها حينها سببا في جعل قواها تخور والأمل ينعدم

لما تجاهلها فارس؟ أليسوا أفرادا من نفس العائلة؟ طالما أغرقها الجميع بحقيقة أن علاقة الدماء لا تهم بقدر أهمية المشاعر، حبهم لها وحبها لهم يكفي لجعلهم عائلة، لكن لو كانوا على حق فلما لم يبذل فارس جهده لإنقاذها؟

«الغريب يبقى غريبا مهما طال الزمن أو قصر»

تهمس سوسن بشرود، حقيقة عيشها بين أحضان أغراب طيلة سنوات عمرها ليس شرطا لجعلهم عائلة واحدة

ترمي نظرات للهاتف الملقى جانبا، كانت قد تواصلت سابقا مع خالها عزام مطمئنة إياه عنها، لا تنكر الرجفة التي أحستها في صوته، كان سيستقل أول طائرة ويأتي لها لولا رفضها وتذكيره بمسألة مراقبة العصابة

تبتسم بحسرة، خالها عزام أكثر شخص تشعر معه بالأمان، طالما عاملها كابنته الحقيقية، تتسع ابتسامتها أكثر، بل أحسن من معاملة بناته، لكن هذا لا زال لا يعني أنهم عائلة صحيح؟

تعتريها رغبة فظيعة في البكاء، استيعاب حقيقة أنها وحيدة صعب، صعب جدا، لو كانت ضياء أو أحد إخوتها محلها متأكدة أن فارس لن يتردد لحظة لمساعدتهم، حتى لو عنى الأمر الموت تحت طلق الرصاص

أما هي فلا تملك الشخص المستعد لتوديع حياته من أجل حمايتها

تقف آخذة نفسا عميقا، اللوم ليس حلا بل ألم إضافي مزعج

تتوجه نحو المطبخ لتناول شيئا ما، لكن فور عبورها بغرفة المعيشة يقاطعها صوت حركة عند باب الشقة، صوت رجلين أحدهما يتحدث بصخب، إنه صوت صاحب النظارات السود

هل نسي شيئا ما وعاد من أجله؟ ففي العادة لا يجيء إلا مرة في صباح كل يوم من أجل الطمأنة عليها ثم يغادر تاركا إياها بمفردها

لكن لما أحضر معه أحدهم؟

سرعان ما تهاجم الشكوك رأسها، ربما كان كاذبا حقا وحان وقت تسليمها لرجال العصابة

لا تملك متسعا من الوقت لتحليل الموقف والارتعاب، فور سماع صوت تصادم المفاتيح الحديدية تتراجع بخفة، يدخل المفتاح بالثقب لتقفز نحو أقرب مخبأ بدر لذهنها، أسفل الأريكة، يدير القفل ويلج الرجلان متزامنين مع إخفائها لكامل جسمها

وسط حديثهما تحاول كتم أنفاسها المتسارعة، تشعر بالفزع، عليها الهدوء، نظرا لعدم بحث صاحب النظارات عنها فشكوكها ليست في محلها، ربما الرجل الآخر مجرد ضيف فاجأه بالقدوم

تتأكد من ظنها فور سماع جملة الرجل الغريب

«شقتك الجديدة جميلة جوزيف، بالرغم من أنها صغيرة بالنسبة لشقة اليد اليمنى لرئيس عصابة محترمة»

تعليق الرجل الغريب تلاه جواب هادئ من طرف صاحب النظارات السوداء، أو بمسمى آخر، جوزيف

*

يستمر الضيف في الحديث باستمتاع باد على الابتسامة التي تشق وجهه، أما جوزيف فيستمر في إجابته بهدوء، محاولا تمالك أعصابه وإخفاء القلق الذي يسير في مجرى دمه هو الآخر

يبلع جوزيف ريقه لتفعل سوسن الأمر نفسه، في هذه اللحظة، وحسب النقطة التي يقف فيها الضيف، لو أنزل الأخير نظره قليلا فقط سيلحظ جسم شابة مختبئ تحت الأريكة

«أوه علي المغادرة الآن، لا تنسى حضور مسابقة الغد جوزيف»

بعد بعض الوقت، الجملة الأخيرة التي ألقاها الضيف كانت كالماء المنعش الذي أطفأ نار قلقهما، أخيرا انتهى الأمر

يسرع جوزيف نحو باب الشقة لفتحه وتوديع الضيف، أما الأخير فقبل أن يخرج من غرفة المعيشة تسقط منه مفاتيحه التي أخرجها فجأة

«يا إلهي مفاتيحي العزيزة»

ينحني أرضا لالتقاطها، بات وجهه جليا لسوسن، يجذب نظرها وشم الزهرة الذي يمتد على طول عنقه، لتلحظ فورا تلك الابتسامة الواسعة التي رسمها على وجهه، وقبل أن تستوعب ما يحدث كان قد وجه نظراته لها غامزا بتعليق: «أفضل أن أفقد حياتي على فقدانها، فبدونها ستذبل أزهاري الجميلة في البيت الزجاجي»

دون أي فعل إضافي، يمسك مفاتيحه ليستقيم ويغادر الشقة بتوديعية بسيطة، يغلق جوزيف الشقة ليتجه مسرعا نحو سوسن مطمئنا عليها، أما هي فلم تستوعب ما حدث بعد، هل تبادلا النظرات توا؟ أم أن خيالها من نسج لها الحدث لا أكثر؟

تشعر بالرعب، أطرافها ترتجف، يحضر لها جوزيف الماء، لتشربه وعشرات الأفكار تتصارع بذهنها، إضافة لما حدث فقد كان هناك شيء غريب، تقاسيم وجهه، بشرته، شعره، كل شيء، ذاك الرجل بدى كنسخة ذكورية طبق الأصل منها

«ما صلة علاقته بي؟»

تلقي سؤالها الجنوني على جوزيف الذي سرعان ما فهم مقصدها، إلا أنه حرك رأسه رافضا الإجابة: «الجهل قد يحافظ على حياتنا في كثير من الأحيان»

أما هي فتقف بصعوبة رامقة إياه بحدة قبل أن تتجه نحو غرفتها: «لا بأس، سأعلم الحقيقة بنفسي»

*

هاسلاند
الغد .. يوم المسابقة السنوية

في وسط إحدى الغابات المنعزلة، ملكية خاصة محاطة بسور ضخم مجزئ لأجزاء، كل منها يعود لعصابة معينة

«إنها لعبة مشهورة بين العصابات، لعبة الاختباء، العصابة التي تجد عددا أكبر من المختبئين تفوز، والتي تحصل على عدد أدنى تلعب دور الاختباء بالمرة القادمة»

يشرح دميتري أساسيات اللعبة وسط مشيه على الحشائش النضرة، ليسأل فارس بانزعاج: «ولما يشترط القتل؟»

«إنها ميزة إضافية، كلما زادت شناعة القتل زادت النقاط، كيف تريدها أن تكون لعبة عصابات إذا كانت نظيفة من الدماء؟»

يجيبه دميتري ليخرج أنصاله والشهية تبدو جلية على عدستي عينيه اللامعتين من فرط الحماس

«لا أريد المشاركة، أنا لم أنضم للعصابة من أجل هذه الفعاليات المقرفة»

تتلاشى ابتسامة دميتري بعد تعليق فارس، يقترب منه ليباغته بوضع السكين على عنقه، وبوجه شرس لم يسبق وأن أظهره أمام المستجد يقول: «عزيزي دانيال! فلتوقف لسانك عن الإطالة أكثر، للمرة الثانية ينقذك حظك لأنني من معك وليس ماكس، لو كان هو لأنهى على حياتك منذ فترة طويلة»

ويقترب أكثر بينما نظراته تزداد سوداوية: «لا أوامر تخالَف هنا إن ابتغيت الحفاظ على حياتك، خاصة وأنك طُلِبتَ بالاسم من طرف الزعيم»

يبتعد دميتري بعدها متوغلا بالغابة مشيرا لفارس: «والآن اتبعني»

أما فارس فلم يستوعب كل ما حدث، قبضة دميتري محكمة على غير المتوقع، وحركاته أخف من ماكس، أحس للحظات أن نهايته قد حانت

أخذ يتبع دميتري ويده على حلقه، أغمض عيناه بضيق، ليعاود فتحها بعزم، حسنا، إنها مجرد لعبة ستنتهي في غضون ساعات قليلة، الضحايا ليسوا إلا أفراد من إحدى العصابات التي خسرت المرة السابقة، إنهم مجرمون أيضا فلا ضير في التخلص منهم

يخدع نفسه بهذه الكلمات مكملا سيره غافلا عن الكلمات التي خرجت من فم دميتري قبل لحظات

.
.
.

استفراغ، لا يستطيع التحمل أكثر، ما البؤس الذي رآه، لقد قُطِّعَ إلى أجزاء، ذاك الطفل، ثم فُقِعَت عيناه، قد كان حيا بينما أطرافه تُقطَع!

«كنت لأبدأ بقص أصابعه لكن الوقت متأخر للغاية، علينا الاسراع وإيجاد جثث أخرى، لا يجب السماح لعصابة هوشي بالفوز»

يقولها دميتري بعدما وضع أشلاء الطفل تحت بعض الورق، إنها طريقة أفراد الأوركيد في إخفاء الجثث ليأتي مشرفهم ويحملها عند جزئهم الخاص من الجدار مع بقية الجثث، أمسك دميتري نصله واستدار نحو فارس مردفا بضحكة: «لا بأس ستعتاد، أتصدق أن ماكس كان مثلك في السابق أيضا؟ عليك التنويع من ضحاياك للتعود على الأمر»

لا يهتم فارس بتعليقه، بل يصيح: «إنه طفل! ألم تقل أن أعضاء العصابات الوحيدون هنا؟!»

«أوه نعم، لكن لا تنسى أن هناك الكثير من المزايا في هذا العالم، يستطيع اللاعبون شراء بديلين لهم للحفاظ على حياتهم، نفس الأمر الذي كان يفعله النبلاء في الماضي للتهرب من الالتحاق بالحرب، التاريخ يعيد نفسه بطريقته الخاصة»

يجيب دميتري قبل أن يردف بانتباه للصوت الضئيل الذي لامس مسامعهم: «حفيف عشب، لابد من أن فأر متواجد هناك، إنه دورك دانيال فلتصطده»

«ماذا؟!»

يهتف فارس باستنكار فور فهم مقصده، لكن دميتري لا يترك له مجالا للرفض: «أتعلم أن الزعيم سيغضب في حالة علم أنك لم تجرح أحدا حتى؟ انا أيضا لا أستطيع التغطية عنك لأن الكاميرات منتشرة في كل مكان، والآن واجه رعبك الطفولي وانطلق»

كاميرات؟ الكلمة تجبره على الوقوف، والتماسك، رغم ارتعاشة أوصاله
يقبض على سلاحه وشعور عميق من الضياع يغرقه، ما الذي عليه فعله؟

إنه مواطن عادي، صادف أنه تعرف على إلياس صديق والده العسكري السابق ذو الرتبة المرتفعة، والذي كان السبب في تعليمه أساسيات القتال وفنونه

لقد جُهِّز للقضاء على المجرمين، السفاحين، الأوغاد فقط، لكنه لم يجهز لسفك دماء أطفال لا ذنب لهم

«أنظر كم أنا لطيف لقد ساعدتك»

دميتري يقولها بينما أمسك الطفل المختبئ بين الحشائش وقربه من فارس بعدما حاصره بذراعه على عنقه: «والآن اقتله، إنه وجبة طازجة»

بابتسامة شيطانية يخرج دميتري كلماته هاته، متجاهلا صياح الطفل البائس، إنه يترجى الرحمة، يريد والدته، الفزع جعل بريقا مؤلما يحتل نظراته

«هيا دنيال!»
يبتلع فارس لعابه بغصة، من مكانه قابضا على المسدس يرفعه موجها إياه نحوه، دميتري الممسك بالطفل باستمتاع، يتذكر الأعين التي فقعها والأطراف التي قطعها قبل لحظات، هذا الرجل لا صلة له بالبشرية، إن الدماء التي تسير بعروقه شيطانية، كدماء إبليس

«لما تبدو وكأنك ستقتلني»

يعلق بها دميتري ممازحا تحت نظرة فارس الحادة، نعم، هذا الشخص هو الذي عليه قتله وإراحة العالم من جنونه

ومباشرة يضغط على الزناد لتستقر الرصاصة بجمجمته!

*

بوريزا
صباحا

مجموعة من ثلاثة شباب وفتاة، الأخيرة تتوسط الشاب ذو الشعر والعينان السوداوان وآخر ذو شعر أسود وعينان فاتنتان تحمل مزيجا من اللون الرمادي والأزرق، أما الأشقر ذو الأعين الملونة فكان بجانب صاحب الأعين الفاتنة من الطرف الآخر

تتأمل ضياء الصورة المطبوعة على الإطار الضخم، تعقد حاجباها باستغراب، أهذا الأشقر شقيقها فارس؟ منذ متى كانت له علاقة بفتاة؟ ظنته ملتزما

تهز كتفيها بقلة اهتمام لتكمل سيرها نحو الغرف لأخذ الملاءات الواجب غسلها من أجل إعطائها لأنستازيا، لابد من أنه مجرد طيش مراهقة، رغم أنها تشعر ببعض الغرابة من صاحب الأعين والشعر السود، لما يبدو مألوفا لها؟

أثناء مرورها مجددا باللوحة في طريق عودتها يوقفها الضجيج الذي صدر من خلفها، أهناك غرفة خلف الحائط الذي تُعلَّق عليه؟

بعد تأمل المكان فالغرفة الأقرب هي غرفة ذؤيب، لكن هناك مساحة كبيرة بين هذا الجدار وغرفته

تضع الملاءات أرضا، التصرف السليم هو تجاهل الضوضاء وإكمال يومها بشكل طبيعي، لكن الفضول عدو الانسان، العدو الذي لا تستطيع التغلب عليه شخصيا

تقترب من اللوحة الضخمة المعلقة على طول الجدار لتزيحها، وبشكل مفاجئ تجد بابا سريا

تتسع ابتسامتها وسط الحماس الذي غمرها، كانت تعلم أنه يوجد شيء مثير في بيت ريفي كهذا، شيء كما يحدث في الروايات، أحلامها ليست خيالية

دون حذر تلج الغرفة تاركة الباب مفتوحا خلفها، تتأمل الأرجاء لثوان وحدقتاها تزيدان اتساعا، ليس من فرط الحماس فقط بل حبا وإعجابا، ما تراه الآن من أجمل ما وقعت عيناها عليه طيلة حياتها، مكتبة ضخمة على طول الجدران الأربع، مليئة بالكتب والمجلدات

تلتف حول نفسها ذاهلة لتصرخ بحماس: «تبارك الرحمن، إن كان هذا حلما فلا توقظني منه يا رب، أين هو وحشي الخاص مالك هذه المكتبة الفاتنة؟»

لكن وسط أفكارها الحالمة فجأة يغلق الباب، تسمع صوت جلجلة مفاتيح من خلفها، تقفز فزعة وقبل أن تلتفت تمنعها يد تضغط على فمها وجسم يثبتها مانعا إياها من الحراك

تشعر بقلبها يتهاوى أسفل قدميها، أهذه عملية خطف جديدة؟ لم تمنح نفسها وقتا طويلا للتفكير وها بها تعض اليد المغطية فمها والتي سرعان ما يبعدها صاحبها كاتما صوت صياحه

أما ضياء فتكاد تصرخ لولا الهمس المألوف الذي يصل مسامعها: «لا تقلقي إنه أنا، والآن ابقي فمك مغلقا ولا تفضحينا»

تلتف نحوه لترمقه بدهشة: «رجل المزهرية المجنون؟ ما الذي أحضرك إلى هنا؟»

يجيبها ذؤيب بنبرة تحمل بعض الألم بسبب عضها له: «أظنني من يجب أن يطرح هذا السؤال»

ليردف بنظرة تغرقها السخرية مبتعدا عنها: «كما أني لا أظنك بحاجة لمجيء وحشك الخيالي من أجل إنقاذك، وجودك وحدك يكفي، أتساءل الآن هل علي مناداتك بآنسة سلم أو سيدة وحش»

ترتب شعرها معلقة بانزعاج: «أنت لست كوميديا على فكرة، عد لدور المكتئب رجاءً، إضافة إلى هذا لما تبدو هاربا؟»

دون أن يجيبها يصلها الرد على شكل رؤى المنادية في الرواق، تحاول فتح الباب لتقول بعد فشلها مبتعدة: «باب موصد آخر! ولما هذه اللوحة ملقاة بإهمال؟!»

كلام رؤى يصل مسامعهما ليتلوه صدى خطواتها المبتعدة، يمسح ذؤيب جبهته زافرا: «يا للراحة، لم تكتشف الأمر»

تحدق ضياء لثواني في الباب الموصدة من الداخل قبل أن ترمق ذؤيب ضاحكة باستهزاء بعد فهم الموضوع: «أتهرب من خطيبتك أيها السيد النبيل؟ يا للقسوة وانعدام الرجولة»

«انقلعي من هنا! لا ينقصني إزعاجك»

يجيبها ذؤيب قبل أن يعيد نفسه لموضعه السابق، مستلقيا على الأريكة الوحيدة المتواجدة هنا، مكملا عمله بحاسوبه

أما ضياء فتلقي نظرة أخرى على الماكن، تلحظ وجود بابا على الجهة الأخرى، على الأرجح ستكون الباب المؤدية لغرفة ذؤيب، لكنها رأت غرفته بالفعل ولم تلحظ وجود بابا إضافية، غير باب غرفة الملابس

«إنها غرفة الملابس إذا»

تعلق بعد إمساكها المقبض وإدارته، لكن من دون جدوى، الباب موصد أيضا، هذا الرجل يجيد الاختباء حقا

لكن لما عليه الاختباء من رؤى؟ رأتها قبل أيام بالفعل وبدت شخصا محبا عاشقا له، بالرغم من أنها كادت تقتلها فورما علمت أنها متزوجة من ذؤيب، لقد تشابكا بالأيدي

حتى أنستازيا المسكينة نالت ما نالته من الخربشات وسط محاولاتها البائسة للفك بينهما

«لابد من أن رؤى قد ابتعدت، اذهبي الآن، ولا تنسي إعادة اللوحة لمكانها»

يخاطبها ذؤيب ملقيا المفاتيح نحوها، تمسكها، لتتوجه نحو الباب الذي دخلت منه بعبوس، ما عليها إلا الحفاظ على الهدوء والمغادرة، لا تريد التورط مع هذا المجنون مجددا، يكفيها أن رأسها كاد يتهشم بسبب المزهرية التي رماها عليها قبل مدة قصيرة

المكتبة الجميلة، لم تشبع عيناها بعد من هذا المنظر الخلاب

قبل أن تدخل المفتاح في ثقب الباب وقعت نظراتها على عنوان كتاب، تتسع عيناها بدهشة، أحد روايات الرعب الكلاسيكية التي كانت تود اقتنائها لولا ندرتها في الأسواق

تتوجه نحوها سريعا دون أدنى تفكير، تمسكها بعدم تصديق لتزيد دهشتها من العناوين المجاورة لها، كم هائل من الروايات النادرة التي طالما أرادت قراءتها

تلمع عيناها بحب، لقد وجدت أخيرا نعيم الدنيا، تمسك الرواية لتستدير نحو ذؤيب الذي كان يتابعها بنظراته في صمت، يتبادلان النظرات، لتحرك لسانها أخيرا قائلة:

«زوجي العزيز، أتعلم أني أحبك كثيرا!»

*

هاسلاند
الغابة الخاصة عند أرض المسابقة

«سحقا! لقد تحصلنا على المرتبة الثانية، عصابة هوشي تجرأت على الفوز مجددا، لولا الجرس الذي دق مبكرا لجمعت ثلاث أكوام من الجثث على الأقل، هناك تلاعب في الوقت، هذا غش»

يستمر دميتري في التذمر والشكوى وسط جلوسهما على مقاعد المشاهدين رفقة بقية اللاعبين، سيبدأ القائمين بتوزيع الجوائز، أصوات التصفيق ترتفع، وكأنها مسابقة عادية لأشخاص طبيعيين

أما فارس فكل ما يستوعبه هو شكل يده التي يحدق بها الآن، لقد قتله، قتل الطفل بها، تذكره لوجود الكاميرات هو الشيء الذي جعل السلاح ينزاح بعيدا عن مستوى جمجمة دميتري، لتستقر الرصاصة برأس المسكين، ياله من حثالة!

«دانيال انتبه، الزعيم سينهض لإلقاء كلمة»

يهمس بها دميتري ليردف باستياء: «يا للسخافة! جوزيف معه مجددا، لا أفهم سبب مرافقة ذاك المخنث للزعيم، على ماكس رؤية هذا، سيكون سببا كافيا لإفساد يومه»

لا يهتم فارس بحديثه حول المخنث ومشاكلهم، كل ما يهمه هو ذاك الرجل الواقف على بعد أمتار عنه، المسمى بالزعيم، الشخص الذي هو مستعد للتضحية بحياته في سبيل الاقتراب منه، وتفجيره!

يتبعه بنظراته، لم يتغير كثيرا، سوا خطوط من الشيب التي غزت شعره، يشعر بالنار تأكل قلبه، الوغد الذي فعل كل هذا من أجله هنا أمام عيناه، يستطيع النهوض وقتله في هذه اللحظة وإراحة روح أحبته الذين كان السبب في ذهابهم، لكن عليه الصبر

الانتقام الجيد يطبخ على نار هادئة

«لا أصدق هذا، المخنث من سيستلم جائزتنا، تبا، أنا من يستحقها، أقسم أنه لم يخرج من غرفة الطعام حتى»

يمرر فارس نظراته للمخنث بانزعاج من ثرثرة دميتري التي تجبر المرء على الشعور بالفضول

أكان اسمه جوزيف؟ إنها المرة الاولى التي يرى دميتري يكره شخصا ما بهذه الطريقة، كاد يتساءل عن سبب قربه من الزعيم لكنه يستطيع تخيل الأمر، رغم اختلاف لون شعرهما وعيناهما إلا أن ملامحهما تبلغ مبلغا كبيرا من التشابه، لابد من أنه قريب له

«للقرابة مزايا خاصة في عالم الجريمة أيضا»

يهمس بهذا ساخرا قبل أن ينزل عينيه ارضا إثر الصداع الذي لازمه، يريد التقيء، صورة الجثث تأبى ترك مخيلته

لحظة واحدة!
يعقد حاجبيه فجأة كمن أدرك شيئا للتو، يعيد رفع عيناه نحو الزعيم، يعيد نقلها لقريبه جوزيف، يبتلع ريقه محاولا استيعاب ما يراه

«أخي دميتري»

«ماذا تريد؟»

«أخبرني متى انضم هذا الجوزيف للعصابة؟»

يجيبه دميتري بثرثرة أخرى لا يستوعب منها شيئا غير تلك الجملة

«منذ سبع سنوات»

يستمر في التحديق محاولا تهدئة نفسه، ذاك الوجه المألوف، المألوف جدا، هل سبق وامتلك راشد توأما له؟!

*

بوريزا
عند مكتبة المنزل

يغلق ذؤيب الحاسوب محركا عنقه المتشنجة، مرت الساعات دون أن يشعر، يمسك قارورة المياه راويا عطشه بينما نظراته مثبتة على الجسد المتربع أرضا وسط انغماسه في قراءة إحدى الكتب

ضياء، يذكر ما حدث قبل ساعات، لقد حصل على اعتراف حب من طرف هذه الصبية، يميل فمه ساخرا، يبدو أن هذه الكتب جعلتها تفقد عقلها، ظلت تترجاه للسماح لها بتصفحها لكنه قابلها بالرفض

إلا أنها لم تستسلم، بل وبشكل مزعج ومخيف، سارعت في إظهار وجهها الآخر، مكشرة بغضب لتهدد بأنها ستشي بأمر هذا المخبأ لرؤى

«كما أنك ملزم بتعويضي على الضرر الذي سببته لي، لا تنسى أنني خُطِفتُ بسببك»

عندها رغم رفضه إلا أنه أُجبِرَ على الاستسلام، يا لها من طفلة عنيدة

يتأمل أنحاء المكتبة بشرود، هذه الكتب العتيقة تعود لجده، هذا المنزل أيضا يعود له، كان المنزل الذي عاش فيه قبل أن يبني ثروة العائلة الخاصة، لذا اشترط عليها عدم إخراج الكتب من هذا المكان لكي لا تتعرض للتلف

نعم فهذه الكتب قيمة للغاية، مجموعة من مختلف العناوين النادرة، ذات المجالات المختلفة، السياسية، التاريخية، الفلسفية، الروائية وحتى الفنية، لطالما كان جده مهووسا بجمع الأشياء النادرة

«فلنتوقف هنا»

تقاطع أفكاره ضياء وهي تعيد الكتاب لمكانه ممددة أطرافها بإرهاق، أما هو فيسأل باستغراب: «ألن تكملي قراءته؟ لم يتبقى الكثير، ساعة وستنتهي منه على الأكثر»

رغم استغرابها من حديثه الطبيعي غير المألوف إلا أنها تجبه مباشرة: «ألم تسمع صوت أذان العشاء؟ علي الصلاة وقراءة وردي من القرآن، لقد ضيعت يومي بسبب حماسي لقراءة الرواية، المرة القادمة عليّ السبق بوردي»

وتردف بعدما فتحت الباب مغادرة المكتبة: «والآن تصبح على خير يا رجل المزهرية، أراك غدا»

لتغلق الباب خلفها، يليها صوت زحزحة الإطار الذي أعادته مكانه، أما ذؤيب فيعقد حاجباه متأملا السقف

الصلاة؟ متى كانت آخر مرة صلى فيها، أو لنقل أول وآخرة مرة قام بفعلها، ربما في حصة الدين بالمدرسة المتوسطة، كان يلهو مع بقية الشباب في مسرحية دينية، لا يظن أن تلك المرة تحتسب كصلاة من الأساس

«هل أنت مسلم؟»

يتذكر سؤال قيس ليزيد عبوسا، نعم هو مسلم بالطبع، يؤمن بالله وحده وبنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، لكنه لا يصلي فقط، ولا يصوم أيضا، ولا ننسى الزكاة والحج التي لم يسبق وأن قام بها، كل ما يعرفه أن هذه هي أركان الإسلام التي حفظها في المرحلة الابتدائية
لكن هل هو مخطئ؟

لا يظن هذا، فمنذ نعومة أظافره لم يلحظ أحدا من عائلته بقوم بأي تعاليم دينية، يظن أن بعضهم يعتقدون بأن الإيمان بالقلب يكفي، ومنهم من ينتظر المشيب ليتوب ويلتزم

ماذا عنه؟ في أي صف هو؟ صراحة لم يفكر في الأمر من قبل

يقوم من مجلسه ليتوجه نمو إحدى الرفوف، والتي تحمل كتبا دينية، إنها كالتي يتصفحها أمزيان

صحيح، لقد أسلم هذا الأخير، سارا كادت تجن حينما علمت بالخبر، المسكينة، تربيتها له باتت بالفشل

يمسك إحدى الكتب ليعود لمجلسه، يقلب الأوراق بملل، ليس وكأنه يهتم لكنه يشعر بالفضول بخصوص نوع الكلام الذي جعل أمزيان يغير من عقيدته، الكلام الذي يجعل ضياء تضيع وقتا في الصلاة وقراءة وردها، بالتفكير بالأمر فهو حتى لا يعلم ما يعنيه الورد

يفتح أول صفحة ليستلقي موزعا نظراته على الحروف والجمل، سيقضي دقائق راحته في إشباع هذا الفضول لا غير

*

الفصل السادس

هاسلاند
في شقة إحدى فرق الأوركيد

يغسل فارس أسنانه بعد تناوله العشاء الخفيف الذي اشتراه دميتري المنشغل بتنظيف الأواني حاليا، أما ماكس فلابد من أنه ملازم لحاسوبه في غرفة المعيشة

يتأمل شكله في المرآة، القناع الذي يرتديه واقعي للغاية، يشعر بالفخر كون أمره لم يكشف حتى هذه اللحظة، رغم الفترة القصيرة التي قضاها إلا أنه يستطيع القول أن علاقة قوية باتت تجمعه مع دميتري، بالرغم من أنه لا يتوقع حقا من رجل مثله أن يمتلك علاقات انسانية جيدة

لكن لا بأس بما أن هذا لا يشكل خطرا عليه

بخلاف ماكس، لسبب ما بات يرمقه بنظرات شك وارتياب مؤخرا، يراقبه بهدوء، كمن ينتظر الزلة منه لإقصائه

حسنا، بالنسبة لشخص حذر كماكس فهذا تصرف بديهي، من الغبي الذي لن يشك برجل ذو مهارات جيدة فضل الاختباء في دور خادم لفترة طويلة؟

يمضمض فمه، يرتب ثيابه متجها نحو باب الشقة ناويا الخروج، ليوقفه استفسار دميتري: «إلى أين تنوي الذهاب دانيال؟»

يلتفت فارس مجيبا بابتسامة بسيطة متجاهلا نظرات ماكس الحادة: «سأتمشى قليلا وأعود»

أما دميتري فيعلق ضاحكا بغمزة: «فلتخرج القمامة في طريقك، ولا تنسى إبلاغ تحياتي للجميلة التي سترافقك»

يبتسم فارس مدعيا التوتر ليحمل كيس القمامة ويخطو خارج الشقة: «لقد اصطدتني أخي دميتري»

.
.
.

تحت السماء المغلفة بالظلمة، يترك سيارته في إحدى المواقف ليكمل سيره، لم يسبق له وأن زار هذا الحي، يتوقف عند مدخل الحديقة العامة متكئا على عمود الإنارة ليعود لتصفح هاتفه منتظرا رد ريان، فقد طلب منه تتبع رقم هاتف جوزيف

استطاع إيجاده رفقة عنوان منزله في بيانات العصابة، كل ما عليه الآن هو تحديد مكانه الحالي لا غير

يرفع نظره للسماء الصافية على غير العادة مفكرا، أيعقل أن جوزيف هو راشد حقا؟ صديقه لم يمت؟
ليس متأكدا من هذا، ربما جوزيف أحد أشباهه الأربعين، أو قريب له لم يعلموا عنه شيئا من قبل، هذا الخيار أكثر واقعية نظرا لأصول راشد

لكن شعورا قويا يخبره أن جوزيف هو راشد، ربما بسبب كونه يتمنى هذا

"صاحب الهاتف يقترب من الحديقة العامة"

كانت الرسالة التي وصلته توا من ريان، والتي تزامنت مع ظهور ذاك الرجل المتشح بالسواد، إنه جوزيف

يمر من أمام مدخل الحديقة، لا ينتبه على فارس المتكئ على عمود الإنارة، أما الأخير فينادي في محاولة لإيجاد إجابة لشكوكه: «راشد!»

يلتفت جوزيف نحوه بنظرات مذهولة، يرى فارس الذي بادله ذات النظرات، ما سبب ردة الفعل هذه؟ أيعقل أن شكوكه كانت صائبة؟

قبل أن يصدر من جوزيف أي رد كان قد أطلق فارس العنان لأقدامه مهاجما إياه بشراسة

لكمة، تتلوها لكمة أخرى، يسقط بها على وجه راشد بقهر بلغ العنان، يسقط عليه المزيد من الألم، رفقة كلمات غير متساهلة شاتما إياه

«لم تنفي الأمر حتى، أنت راشد! أيها الحيوان، لما فعلت هذا؟!»

يصيح فارس بها متحسرا بينما النار أكلت قلبه، لتمر الدقائق قبل أن يجلس على قارعة الطريق رفقة جسم راشد الذي لم يقاوم أيا من ضرباته، تركه يفرغ غضبه، والذي لن يُفرَغَ بسهولة، فما فعله ليس بالشيء القليل

«لقد سألتك فأجبني!»

يصيح فارس مجددا تحت صمت راشد المميت ليردف بعينين محتقنتين بالدماء:
«أتعلم ما الذي أحدثه اختفائك أيها الوضيع؟ ظننناك ميتا، أمي قتلتها الحسرة، وذؤيب ظل حبيسا للندم الذي ينهشه، ظل يلوم نفسه، لقد حاول الانتحار أيضا!»

«ليته فعلها»

الشيء الوحيد الذي ارتضى الخروج من فاه راشد، والذي رافق اسوداد فوق اسوداد عيناه، الموت، هذا قليل مما يستحقه ذاك المدعو بذؤيب

تلجم الصدمة فارس مغطية على غضبه ليهمس بعدم استيعاب: «أعاديت رفيقك من أجل تلك الوضيعة؟!»

لم تكد تمر أجزاء من الثانية حتى تلقى فارس لكمة على وجهه دون تردد من راشد الصارخ: «انتبه لألفاظك!»

«أيها المعمى، لقد استغلَتك»

«خسئت، الأمور ليست كما تظنها»

«لا مجال للظن، بل أنا متأكد، كل شيء كان واضحا، ليس وكأن السعار سيصيب ذؤيب ليقتلها من دون أي سبب»

يجيب فارس بعدما سدد لكمة أخرى لراشد والذي نهض دون تردد لردها وإكمال دفاعه العقيم عن محبوبته، يستمران في تبادل الضربات، والكلمات التي تدافع عن وجهتي نظر كل منهما

.
.
.

يرتفع صدره ويهبط إثر تنفسه السريع، والأمر ليس مختلفا كثيرا على الشخص الذي يجاوره، كلاهما ملقيان أرضا بإنهاك، قوة عضلاتهما خانتهما، فلولا تلاشيها لفضلا الاستمرار في الصراع للأبد

«دنيء عديم رجولة! يامن بعت أسرتك من أجل فتاة لا تستحق»

يعلق فارس بإرهاق ليجيبه راشد بيأس: «أنت لم تتغير، يجب أن تكون آخر من يشتم»

«هذا لأنني على كفة الحق»

لا يعلق راشد هذه المرة، يكتفي بالاستلقاء أرضا وتغطية وجهه بذراعه، موقن كل الإيقان أن كلام فارس صحيح، لكنه لا يريد تصديق هذا، ظل يتهرب من الحقيقة لأعوام، والآن حينما سمعها مجددا لم يقدر على تحملها، إنها لا تزال تمزقه، تمزقه بشدة

«أريد الاستمرار في محاولة استرداد عقلك الضائع لكننا في مصيبة»

يقاطع أفكاره فارس الهامس، يسأل بهدوء: «ماهي؟»

«ماكس يقف خلف عمود الانارة الذي هناك، وصل إلى هنا مع آخر لكمة سددتها لك، لا بد من أنه تعقب رقم هاتفي»

يتمتم بهذا ممسكا بالهاتف مردفا: «بات يلاحقني كثيرا مؤخرا، إنه يشك بوضعي»

«حل مشاكلك بعيدا عني، لم أعد راشد الآن بل جوزيف»

يجيب راشد ليحمل جسده واقفا ناويا المغادرة دون أن يمنح فارس فرصة لإقحامه في الأمر، يكفي أنه غامر بإنقاذ سوسن، لا يود الانخراط أكثر فيما قد يغضب الزعيم، ويجعله يفقد حياته

«لقد غُسِلَ دماغك حقا يا عبد أميرة»

لا يجيب على تعليق فارس المغلف بالسخرية والحسرة، بل يوليه ظهره سائرا، ستكون المرة الأخيرة التي يراها فيه بشكل مخصوص

لا يكمل رسم أحلام مستقبله الباردة إلا وقد شعر بفارس المندفع نحوه من الخلف، لم يسدد ضربة مباغتة هذه المرة بل ضم ذراعه وأخذ يسير بمحاذاته، وبشكل غريب يدعي الرقة

«ماذا حل بك؟»

يتساءل راشد مستنكرا مع محاولة للإفلات منه لكن الآخر يتشبث به محاولا إكمال السير بشكل طبيعي مجيبا بدلال: «أوه حبيبي، لا تجعل نزاعنا السابق يؤثر في علاقتنا، أعلم أنك رجل غيور، في المرة القادمة سأحاول عدم الاقتراب من دميتري بهذا الشكل، إنه مجرد زميل»

نظرات فزعة تنجلي على راشد متمتما: «هل أثرت اللكمات على قدراتك العقلية؟»

«أكمل التمثيلية واصمت، إنه قادر على سماعنا لذا اجعل التمثيلية تبدو أكثر إقناعا، لا يجب لفت الأنظار»

يهمس فارس بها ليجيبه راشد باستنكار أكبر: «أتظننا لا نلفت الأنظار الآن!»

«أن تلفت النظر كونك شاذا خير من أن تلفته بكونك جاسوسا، كما أني لست مرتد القناع، من حسن الحظ أني ارتديت القبعة والنظارة قبل أن يقترب، والآن ضع يدك على خصري وقل بعض كلمات الغزل»

وبنظرة ثاقبة ينهي كلامه: «قدم معروفا للعائلة التي ربتك، فشلي في هذه المهمة سيعني دمارها»

يريد الرفض، ودفع هذا المجنون بعيدا، لكن قوله الأخير جعله يرفع يده ويحيط خصر فارس بكل ذل، مستمرا في تبادل أطراف الحديث المزعومة لإقناع المتتبع بالتمثيلية

كلاهما، الرجلان السويان، لم يتوقعا يوما أنهما سينزلان لهذا المستنقع، ويتبادلان كلمات الحب بهذا الشكل المثير للغثيان

*

بوريزا
القرية .. الظهيرة

«نحن عمال الإنارة، جئنا لإصلاح شبكة الكهرباء»

«نعم، تفضلوا»

تقولها أنستازيا لتردف مخاطبة الشابتان: «أخبرتني سارا مسبقا عن قدومهم، سأوصلهم لغرفة السيد وأعود»

أنهت أنستازيا كلامها وها بها تغادر رفقة رجال الصيانة تاركة إياهما جالستان على مائدة الشاي رفقة الأوراق المبعثرة، فقد كنّ في خضم وضع خطة محكمة لإيقاع ذؤيب في شباك رؤى

تتبع رؤى أنستازيا والرجلان بنظراتها مستغربة من لهجة حديثهما، هما ليسا من سكان بوريزا على الأرجح

أما ضياء فتعود للكتابة قاضمة بسكويت الشكولاطة قائلة: «فلنعد الآن لخطتنا، عليك جلب الأكل لغرفته بنفسك، مدخل الرجل بطنه كما ورد في القول المأثور، رغم أني أشك في صحة القاعدة عندما يتعلق الأمر بذاك الهيكل العظمي»

تستنكر رؤى تعليق ضياء الأخير لتصيح: «أتظنين أني لم أسمعك؟! الهيكل الذي تقصدينه بحديثك هذا سيعود لسابق عهده فور تعافيه، لا أستطيع نسيان شكله بفترة الشباب، عضلاته المفتولة نتيجة متوقعة من متسلق جبال بارع مثله»

تعود رؤى للتغزل بماضي ذؤيب تحت نظرات ضياء المتململة، فترة شبابه قالت، من يسمعها الآن سيحسب أنهما يتحدثان عن شيخ هرم

لكن بعيدا عن شكله، الجميع قد انتبه بالفعل للتغير الطارئ رويدا رويدا على ذؤيب، بدل الاقتصار على العمل من حاسوب غرفته أصبح يذهب للشركة مرات عدة في الأسبوع، كما أنه بات يخرج من غرفته كثيرا أيضا

حتى كميات الكلام التي بينهما أصبحت تزداد بشكل تدريجي بالرغم من أن أغلب المحادثة تقتصر على عبارات الاستهزاء وحروب قصف متبادلة

دون أن تشعر تبتسم ضياء بسعادة لطيفة، يبدو أن ذاك المكتئب قرر محاربة مخاوفه والانتصار عليها أخيرا

«توقفي عن توزيع الابتسامات كالبلهاء وأكملي نصائحك الطفولية»

توقظها رؤى من موجة أفكارها لتعود للكتابة، دون نفي السعادة الأخرى التي تشعر بها بسبب علاقتها التي تحسنت مع رؤى أيضا، من الجميل الحصول على صديقة إضافية في هذا المكان

«حسنا حسنا، والآن النقطة الثانية، عليك التقليل من حماسك والتحلي ببعض الرزانة»

«نصيحة في غير محلها، لا يوجد أرزن مني»

تقاطعها رؤى لتحرك ضياء رأسها بيأس بعد ساعة من الزمن، عاد ذؤيب وها بمدعية الرزانة تهرع للترحيب به ومعانقته، أرزن منها قالت

وسط هذا تلقي ضحكة مستمتعة وهي ترى نظرة ذؤيب الطالب للنجدة، لم يتوقع رؤيتها اليوم على الأرجح

وسرعان ما يقاطعهم خطاب أحدهم: «صغيرتي رؤى، لا تستطيعين الاقتراب منه بهذه الطريقة قبل الزواج»

يستدير المتواجدين نحو صاحب الصوت الذي كان يتقدم داخل الحديقة دون إذن، تتسع حدقتي ضياء صارخة بفزع: «المنحرف!»

لتقفز نحو خمار الصلاة مرتدية إياه، أما رؤى فتعلق غاضبة: «كيف لك أن تصفي أخي بالمنحرف؟»

«أخاك؟ يا للدماء النتنة التي تتشاركانها، أشفق عليكِ»

تجيبها ضياء لتختبئ خلف ذؤيب، أما رؤى فتقترب أكثر ناوية بدء شجار بالأيدي لولا ذؤيب الذي منعها من هذا وسلام الذي أمسكها مقاطعا الجلبة بابتسامة بسيطة مخاطبا ضياء: «رجاءً أيتها الآنسة دعيني أتكلم هذه المرة، لا أريد تلقي الضرب كالمرة الماضية»

ويشير نحو ذؤيب الواقف بصمت بينما رفعة حاجبه واضحة، كمن ينتظر تفسيرا لما يحدث

يستكمل سلام طارحا سؤال: «أنت ضياء صحيح؟»

تهز ضياء رأسها بإيجاب ليردف بسعادة جلية: «لقد كان إحساسي صادقا إذا، اشتقت لك دجاجتي»

بعد كلمته الغريبة يقاطعه ذؤيب بحدة مقتربا منه ليسحبه من ياقته: «احترم نفسك سلام، لا أظن أن هذه الطريقة السليمة لمخاطبة زوجة شخص آخر!»

تحاول رؤى الفك بينهما دون فهم لما يحدث، إلا أن ضياء تفاجئهم بدفع ذؤيب وضم سلام بأقصى ما تملك من قوة صائحة بفرح: «أميري الوسيم، لم أتوقع رؤيتك مجددا!»

الفصل السابع

بوريزا
بعد أيام

«لما عاد العمال اليوم أيضا؟ لقد مرت أيام بالفعل»

تعلق رؤى بانزعاج متوقفة عن تصفح هاتفها لتجيبها أنستازيا التي عادت بعدما أرشدت العمال لغرفة ذؤيب مجددا: «قالوا أن الخيوط الكهربائية متضررة للغاية بسبب الرطوبة، يحتاجون المزيد من الوقت»

«ولما لا تبقين معهم؟»

«زعموا أنهم لا يشعرون بالراحة أثناء وجودي»

«أنا من لا أشعر بالراحة، هؤلاء الفشلة، أحقا يعملون في شركة إصلاح مشهورة؟ علي مهاتفة رئيسهم وإخباره بهذا الإهمال»

تقاطع شكوى رؤى ضياء الواقفة: «سأذهب لإعادة هذا الكتاب»

لتغادر مجلسهن داخلة المنزل، تعاود ارتداء خمارها مخافة مقابلة العمال، تصعد للطابق العلوي وصولا للوحة، تبعدها داخلة المكتبة السرية، تعيد الكتاب بعناية لتبحث عن عنوان جديد، ما الذي عليها قراءته هذه المرة؟ كل العناوين مغرية

وسط حيرتها، يجذبها صوت العاملين الواضح، تقترب من الباب المؤدي لغرفة ذؤيب محاولة الاستماع

أهذا تجسس؟ إنها تريد التأكد من أنهم يقومون بعملهم على أكمل وجه فقط، شكوى رؤى جعلتها ترتاب بعض الشيء

«انتبه وأعد كل الملفات لمكانها حتى لا نثير الشكوك، وأسرع! اليوم مهلتنا الأخيرة»

تعقد ضياء حاجباها باستغراب، أتحتاج الصيانة الكهربائية إلى ملفات؟ لكن ماذا يقصدون تحديدا بمهلتنا الأخيرة؟

«علينا إيجاد الوثيقة قبل أن يأمر الزعيم بقتلنا، أعضاء الأوركيد مرعبون»

الجملة الأخيرة تقع على مسامعها كالصاعقة، عن أي وثيقة يتكلمون؟ وما الذي يقصدونه بالأوركيد؟

لتأكيد شكوكها تطل من ثقب الباب لترى أحد الرجلين يفتش حاجيات ذؤيب، وقبل أن تتساءل عن مكان الثاني تظهر عينه وهي تطل من ثقب المفتاح من الجهة الأخرى، تكاد أعينهما تتقابل لكنها ابتعدت في اللحظة المناسبة واقفة في نقطة غير ملحوظة، ليصلها صوته المدهوش: «أنظر توجد مكتبة هنا، أحضر عودي الحديد لفتح القفل»

تسرع نحو باب الخروج لطلب النجدة، أهم يبحثون عن وثائق العمل؟ ربما أرسلتهم نفس الجهة المتسببة في خطفهما سابقا، تكاد تخرج للرواق لولا رؤى المندهشة التي ظهرت فجأة داخلة المكتبة: «منذ متى كان هناك باب سري خلف هذه اللوحة؟»

تشير لها ضياء بالصمت، لتجذبها للخارج هامسة بخوف: «هل كانت غرفة ذئبي تطل دائما على هذا المكان؟»

«نعم، إنه مخبأ ذؤيب السري للهرب منك، والآن علينا طلب النجدة، هؤلاء العمال يحاولون سرقة بعض الملفات»

لم تدرك ضياء حجم الكارثة التي خرجت من فمها دون شعور منها إلا بعدما رأت تعابير عدم التصديق على رؤى: «يهرب مني؟»

قبل أن تجيبها ضياء يفتح باب غرفة ذؤيب لدخل الرجلين للمكتبة

تعلوا الصدمة وجه العاملين، إلا أنهما لا يترددان في الهجوم على الشابتان

تقفز ضياء هاربة للرواق أما رؤى فتظل متيبسة بمكانها، التصرف السليم ينص على وجوب الهروب وطلب المساعدة، لكن ضياء سرعان ما تيبست هي الأخرى بذهول من حركات رؤى الدفاعية

ثوان قليلة حتى سقط الرجلان مغمى عليهما، لتخرج رؤى من المكتبة والبيت كاملا ووجهها يحمل نوعا آخر من التعابير، دون إضافة كلمة أخرى، أهذا ما يسمى بالهدوء الذي يسبق العاصفة؟

لا، بل هي امرأة غاضبة بكل اختصار

*

هاسلاند
بـعــد أيـام

«راشد، الرجل الذي اختاره قلبي، ليؤرخ التاريخ حبنا»

كلام أميرة، رغم إدراكه لما يبلغه من كذب إلا أنه لا يستطيع محوه من ذكراه، لقد أحبها بشدة، ويظن أنه سيكون كاذبا لو ادعى زوال كل ذرات هذه الأحاسيس من قلبه، مازال يشتاق لها، مكذبا كل ما حصل، صانعا تبريرات مخادعة ليدافع عن أفعالها الدنيئة

يغلق راشد ألبوم الصور بعدما وقعت عيناه على الصورة التي تجمع أربعتهم، خصوصا عندما رأى ابتسامة ذؤيب المتسعة ونظرات أميرة المتسللة نحوه

يتردد كلام فارس عليه، يبدو أن حياة ذؤيب ليست بأجمل حال، كيف ستكون عكس هذا بعدما كان من أزهق روح رفيقتهم؟ والتي ليس من المستبعد أنه كان يحبها أيضا

هذه الهواجس التي تبدوا مقنعة تجعله يدرك كم كان أحمقا، لكن لو كان حمقه وسذاجته ستبقي تلك الأيام على ما كانت لما تردد في الاستمرار في غبائه

«سأذهب معكما»

صوت سوسن الواقفة عند عتبة الباب يوقظه، يعيد الألبوم لمكانه بالرف: «ما الذي تعنيه؟»

«سمعت حديثك مع فارس في الهاتف بالأمس، أنتما ذاهبان لبيت عمي، والدك»

يرمقها ببرود، كلامها وحركاتها ثابتة لا يبدو عليها التردد، رغم بعض القلق الطبيعي، أكانت دائما بهذه الصرامة؟ ليس متأكدا، رغم كونهما أولاد عم تجمعهما الدماء، ورغم عيشهما في منزل واحد، إلا أن الذكريات التي جمعتهما لم تكن عميقة كفاية ليعرف هذا الجانب من شخصيتها، كل ما يذكر أنها كانت هادئة في الغالب

حسنا، الهادئون ذكيون على الأرجح، لذا فهي كذلك، تبدو وكأنها علمت هويته، ربما شاهدت صور الألبوم، ليس وكأنه يهتم، فأمره قد فضح عند فارس بالفعل

لكن رغم هذا لم تسأله عن تفاصيل ما حدث معه، كما أنه لا يعلم عما تفعله خلال وقت خروجه، وضعية الحذاء المتغيرة في كل مرة جعلته يدرك أنها تغادر المنزل كثيرا رغم تحذيره لها

«سأعلم الحقيقة بنفسي»

يبدو أنها تسعى جاهدة لمعرفة الحقيقة التي عنتها حينها، كان مثلها في فترة مراهقته، عدم معرفة أصلك الحقيقي لا يعطي شعورا مريحا حتى ولو أحاط بك أحن من في الأرض

«لا، هذا خطر»

يجيب ليتعداها ذاهبا للحمام قبل أن يغادر الشقة، بعد دقائق يغلق الباب بالمفتاح، لم يراها قبل خروجه، لابد من أنها غاضبة في غرفتها

.
.
.

يركن السيارة ويترجل منها رفقة فارس الذي أخذ يلتقط الصور للمنزل المشيد أمامهما، والذي كانت علامات لهيب قديم قد أكلت بعضا منه، من السخرية حقا أن يؤول مصير بيت عمه لمصير أجداده

«تبدو في رحلة استكشافية أكثر من كونك في عملية جوسسة»

يعلق راشد على ملابس فارس والحقيبة التي أحضرها، والتي تتناسب مع رحلات تسلق الجبال، مذكرة إياه بالأيام الخوالي

«الغبار سيغطيني لذا لم أقدر على التضحية بثيابي القيمة، إنها من براندات مشهورة، والآن هيا بنا إلى منزل دراكولا القرن الماضي»

«بدأت أندم على موافقتي على المجيء معك»

يتمتم بها راشد ليهز رأسه بيأس وسط تقدمهما، هو نفسه ليس مدركا لسبب قبوله، قال سابقا أنه لن يتورط مع فارس، ورغم رؤية ماكس لهما إلا أن هذا ليس سببا لتورطه أكثر، ربما يفعل هذا من باب الملل، أو من باب الإحسان قليلا للعائلة التي رعيته

«إذا كيف علمت أن الزعيم يخبئ شيئا هنا؟»

«ريان قام بتتبع هاتفه لمدة معينة ولاحظ تردده المستمر لهذا المكان، وبما أني لم أجد وثائق تحمل أهمية كبيرة في مكتبه بالمقر فلابد من أنه يخبئها هنا»

يبتسم راشد بعض الشيء معلقا: «كبر ذاك الطفل وأصبح مخترقا جيدا»

«نعم، الذكاء موروث في عائلتك، لكن يبدو أنك حرمت منه»

لا يرد راشد على سخرية فارس، طبعه لم يتغير، مازال يحب استفزاز الناس، أما الأخير فيردف ضاحكا وسط تصويره

«كان عليك مشاهدة ردة فعل ماكس هذه الأيام، إنه يخشى على نفسه مني، بات يحسبني محبا للرجال»

«وهل لا يزال يشك بك؟»

«قليلا، لكني بت أعمل على تشكيكه في دميتري، والجانب المشرق الوحيد في القصة أنه بدأ يحذر منه، يا لسهولة زراعة الظنون المشينة في أذهان الحذرين»

قبل أن ينهي فارس كلامه يسمعان صوت مشي على الحشائش من خلفهما، يستدير راشد موجها سلاحه نحو السائر لكن سرعان ما يصدم بسوسن التي تطلب منهم الهدوء

«فعلت ما أردته في نهاية المطاف»

يقولها راشد بعبوس منزلا المسدس لتجيبه: «نعم»

«كيف؟»

«تسللت واختبأت في شنطة السيارة عندما كنت في الحمام»

بعد إجابته توجه نظراتها الحادة لفارس، والذي يحاول عدم النظر نحوها تحت تأثير تأنيب الضمير، سبق وأخبره راشد أنه أنقذ سوسن لكنه لا يتجرأ على محادثتها

أما هي فلا تعر بأمره اهتماما بل تتقدم مخاطبة إياهما: «والآن اتبعاني، لدي فكرة عن مقر تواجد الوثائق التي تريدانها»

«وكيف تعلمين؟»

يسأل راشد لتجيبه دون التفاتة: «تعرفت على رجل خبير في تصميم بيوت النبلاء، وغالبا ما تخبئ الأشياء الهامة في مكتب كبير العائلة الذي يكون في الطابق العلوي»

يحاول فارس تلطيف الجو بتعليقه: «أوه، سوسن تعرفت على رجل غريب، أنت لست سهلة»

أما هي فترمي نظرة جانبية نحوه ملجمة إياه: «نعم، هذا ما يكون عليه الأمر عندما يتجاهلك الأقربون، تلجأ للغريب»

.

.

.

«يا رب ما هذه النعمة العظيمة؟!»

يصيح بها فارس فرحا وسط إمساكه للملفات الكثيرة التي وجدها في المكتب، كما قالت سوسن، لقد وجدها

«أتعود للعصابة؟ هل هي أصلية؟»

يسأل راشد بشك، ليهز فارس رأسه مجيبا بسعادة: «نعم أنظر للتوقيع، كل هذه الاتفاقيات، الخطط المستقبلية، تخطيط البنايات وأماكن الفخاخ، ما هذا الكنز؟»

يحدق راشد في بعض الوثائق ليتأكد من صحة كلام فارس، التوقيع أصلي يعود للزعيم فعلا

لكن أليس هذا غريبا؟ كيف للزعيم أن يترك كل هذا في مكان عار دون حماية؟ وكيف استطاع ريان تتبع رقم هاتفه الأصلي حتى؟ من المفترض أن يطفئه قبل الحضور لهذا المكان الهام مخافة تتبعه من الجهات الأمنية

يلتزم الصمت ليتوجه نحو النافذة متوقعا هجوم الزعيم وأعضاء الأروكيد عليهم، لكن الهدوء سيد المكان، يعيد النظر نحو فارس الذي أخذ يصور الوثائق بسعادة غامرة، ربما شكه مبالغ فيه لا غير

يلقي زفيرا متعبا، أما سوسن فتلتزم الصمت بعدما لم تجد شيئا هاما يشبع غرورها، تمر الدقائق يحدقان فيها بفارس المتحمس، من المفترض أن يفرحان له لكنهما عكس المتوقع يشعران بالقلق

يتذكران الماضي، وكل ما مروا به، يعرفان جيدا ما سبب رغبة فارس في الانتقام، سعادته وحماسه تشعرهما بالخوف الشديد

*

بوريزا
لـــيـــلا

صوت دق على الباب يقطع تلاوتها، تشغل الهاتف الملقى جانبا لتجد الساعة قد تعدت العاشرة، الجدة سارا وأنستازيا في فراشهما بالفعل منذ الثامنة، أهو أمزيان؟ ربما يريد سؤالها عن الدرس الذي لقنته إياه بالمطبخ سابقا

تنهض من على سجادتها لتفتح القفل، كانت قد توقفت عن وضعه لكن ما حدث قبل أيام أعاد إيقاظ القلق والحذر، الأشرار قد يرسلون المزيد من الخاطفين

تتفاجأ بالذي يقف أمامها، ذؤيب صاحب النظرات الذابلة

«ما الذي جاء بك في هذا الوقت؟»

«أهذه طريقتك في الترحيب بالضيف؟»

«الضيف الذي يجيء على العاشرة ضيف بجيح للعلومية»

دون أن يجادلها أكثر يتقدم لداخل الغرفة تحت نظراتها المستنكرة، يجلس على سريرها ثم يستلقي مغط وجهه بذراعه: «لا تهتمي لي وأكملي ما كنتِ تقومين به»

تظل ضياء واقفة في مكانها بحيرة لتعود للجلوس على سجادتها مستكملة قراءة وردها بصوت منخفض

«ارفعي صوتك، صوتك المزعج كفيل لإخافة مشاكلي الأقل إزعاجا»

«سألكمك»

ترد بعبوس لتعود للتلاوة بصوت مسموع، في كل مرة تنوي قراءة القرآن تشعر بكسل يستثقل عليها مهمتها، وإذا لم يكن كسلا فستكون مكانه أعذار واهية، لكن بعد محاربتها والإمساك بمصحفها والاسترسال في التلاوة تخالجها راحة عجيبة، طمأنينة تغمرها، ورضا بحياتها اليومية

هي شابة من أسرة مشتتة لا تعترف بها، تعيش منذ أشهر في منزل أناس لم تسبق وأن قابلتهم، ولا ننسى أنها تعرضت للخطف، حياة بائسة باختصار

لكن عند المقارنة مع قصص القرآن تستطيع إدراك مدى تفاهة مشاكلها

ألم يعش الأنبياء ما هو أسوأ؟ فمن هي حتى تجرؤ على الشكوى؟ كل ما نعيشه ما هو إلا ابتلاء واختبار، لا ضر في مجابهته مادامت النتيجة المرجوة هي الجنة صحيح؟

بعد مرور بعض الوقت تغلق المصحف لتستدير نحو ذؤيب الذي لا يزال على نفس وضعيته، لابد من أن الحوادث الأخيرة جعلته مرهقا، تكاد تحرك عضلة لسانها محاولة التخفيف عنه لولا قوله: «سأتزوج»

«ماذا؟»

ترد بدهشة مما قاله، ليردف: «جدي أمرني بالزواج من رؤى، لابد أنها من جعلته يصدر هذا القرار»

«يا إلهي، غضب المرأة أقوى مما توقعت»

تعلق باستياء مردفة باعتذار: «آسفة، هذا بسبب زلة لساني»

لكن ذؤيب يرد عليها ببساطة: «لا بأس، كان سيحدث هذا عاجلا أم آجلا نظرا لكون رئاسة الشركة لا تستطيع الانقسام على حفيد واحد فقط»

«أتقصد أنه زواج تعاقدي؟»

«تستطيعين قول هذا»

«لا بأس ما دام كلى الطرفين واقعين في الحب»

«لكنني لا أحب رؤى»

الجملة الأخيرة التي صدرت من ذؤيب جعلت عيني ضياء تتسع بدهشة: «ماذا؟! إذا لما تراعي مشاعرها في العادة؟»

يزيح ذراعه من على وجهه محدقا في السقف بشرود: «هذا العالم الواسع يحتوي على مشاعر أخرى عدى الحب»

لا تفهم مقصده جيدا، لكنها تستمر في التخفيف عنه: «لا بأس، يكفي أنها تحبك، سيلين قلبك لها مع مرور الوقت»

«لا أظن هذا»

«ولماذا؟»

«لأنه أخذ يدق لإحداهن بالفعل»

يجيبها بعدما اعتدل في جلسته وظل يحدق فيها لثوان طويلة، إنه لا يرتدي نظارته، عيناه تبدوان بوضوح، عدسته التي التحمل مزيجا فاتنا من الرمادي والأزرق، تقابل عيني ضياء الجاهلة لمقصده مرة أخرى

يقطع ثواني تبادل النظرات في صمت كلامه بينما هو ينهض: «أطلبي من أنستازيا تجهيز فستانك، جدي سيحدد الزفاف في أقرب وقت»

«ستقبل إذا»

«رؤى لن تتحمل المزيد من الجراح»

وللمرة الثالثة تعقد حاجباها دون فهم مقصده بشكل كامل، أما هو فيسير نحو الباب ناويا الخروج، وقبل إمساك المقبض يردف: «على فكرة صوتك تحسن بشكل غير متوقع»

تجيبه ببعض الاستياء الممزوج بالتحدي: «القرآن يزين كل الأصوات، أسمعنا صوتك لاحقا»

أما هو فيخرج ملقيا رده بابتسامة يملؤها الغرور: «صوتي لا يسمع بالمجان»

تجيبه مخرجة لسانها بشقاء: «مغرور»

الفصل الثامن

بوريزا
بعد ما يقارب العام

تقفز ضياء من مكان إلى آخر، جربت كل الألعاب، وذاقت أغلب الأكلات، كل ما بقي الآن هو البحث عن شخص ليحملها ويعيدها للمنزل، يبدو أنه سينتهي المطاف به لفعلها

يتبعها ذؤيب بنظراته، رغم هذا إلا أنه ليس نادما على إحضارها إلى هنا، يذكر شهقاتها بالأمس، شعر بها تمزق قلبه، إنه عيدها الثاني الذي لا تكون فيه مع أسرتها، يبدو أنها تعزهم بحق

يبتئس بعد موجة الصراخ الناتجة عن لعبة القطار اللولبي، حديقة الألعاب، مكان مزعج لكنه مناسب لإذهاب الأحزان بالنسبة للناس الطبيعيين، هو أيضا عليه الاعتياد على الأماكن العامة، عليه أن يكون شخصا طبيعيا

يأخذ نفسا عميقا، صحيح أنه مليء بدخان السيارات وروائح الأكلات الزيتية، إلا أنه حينما يمر عبر القنوات التنفسية ليدخل الرئتين لتمصها البصيلات ناقلة إياه للدم الذي يجري في عروقه ويمد القلب بالطاقة ليضخ كمية أكبر، كل هذا يمده بإحساس فريد، يشعر أنه حي

يوم آخر يضاف إلى عمره، ينهض فيه قادرا على استخدام كامل أعضائه دون أي عطب يصيبها، يجد الأكل والشرب، لديه سقف يحميه، وتقابله زقزقة العصافير لا أصوات القنابل وصداها

لن يجرأ ويقول أنها نعم بسيطة، بل هي أعظم ما قد يملكه المرء، فحتى لو فقد جزء منها فيكفيه أنه لا زال يملك قلبا نابضا وروحا حية، لا زال يملك فرصة لتحسين حياته وتغييرها نحو الأفضل

وسط شروده يرسم ابتسامة حملت بعضا من السخرية، السخرية على حاله الماضية التي كان عليها قبل عام من الآن، متقوقعا بين أربعة جدران وأطياف الماضي تنهشه، بل هو من كان ينهش نفسه

لا ينكر أخطاءه وذنوبه، جريمته أيضا، لا زال يدركها جيدا، لكن ليس لدرجة الجنون، هو من الجنس البشري، وهذا الجنس معروف بأخطائه، فلا ضر من التوبة، وبدء صفحة جديدة

وهابه بدأ صفحته الجديدة بفضل أحدهم بعد الله تعالى

يبتسم متأملا ضياء التي انتهت من لعبة القطار، تتقدم نحوه بدوار، تبدأ في الثرثرة معربة عن تعبها، يسمعها ليلقي بعضا من الجمل في محاولة لإزعاجها بشقاء

لكن سرعان ما يلقي نظرة جانبية على صاحب الحقيبة الرياضية، رجل يرتدي قبعة ونظارات سوداء واقف عند إحدى الزوايا، لاحظ وجوده منذ اللحظة التي أتوا فيها، يسير في نفس محيطهم، وكأنه يلاحقهم

«ذؤيب أنظر من هناك!»

تهتف بها ضياء المؤشرة لمجموعة فتيات يحطن بإحدى الطاولات، تتوسطهن رؤى معطية ظهرها لهما، ترتسم على محيا ضياء ابتسامة شقية، لتتسلل نحوها تدغدغ خصرها

«يا إلهي!»

تصرخ رؤى لتستدير بفزع، وسرعان ما تميل تعابيرها بعبوس عند رؤية ضياء الضاحكة باستمتاع جراء خدعتها الصبيانية، وقبل أن تسقط عليها بسيل من العتاب يجيئها صوت ذؤيب المبتسم: «ضياء، أين احترامك لنهي الرسول عن إفزاع الآخرين، وأيضا هل تريدين قتل أطفالي؟»

أثناء جواب ضياء له يجلسان مع المجموعة بعد استئذانهم ليتبادلان عبارات المزاح تحت نظرات رؤى والشابات المجاورات لها، واللواتي كنّ يحملن نظرات الصدمة ببساطة، هل الذي أمامهن هو ذؤيب حقا؟!

«كيف حالك أخي؟»

رغم التوتر المنتشر إلا أن إحداهن تتشجع وتلقي سؤالها مخاطبة ذؤيب، والذي ينقل نظراته من ضياء لتقع عليها

يرمق الشابة بحدة واضحة خلف نظاراته السوداء، لتبتلع الأخيرة ريقها، وقبل أن تنسحب معتذرة يجيبها ذؤيب بشبه ابتسامة بسيطة: «بخير والحمد لله، ماذا عنكن؟»

تلك الابتسامة البسيطة غير المكتملة حتى بدت كضحكة مشرقة لهن، للحظات، بدا كالوحش الذي عاد لكونه أميرا

«كيف حال أعمامي؟»

يوقظهم سؤاله المفاجئ، إنه حقا يتصرف كإنسان طبيعي، تجيبه الشابة السابقة بشبح ابتسامة: «بخير في الغالب، عدى عمي الأصغر، لا يزال غارقا في موجة كآبته»

«كيف له ألا يكتئب بعد المصيبة التي حلّت به»

«أن يتسبب ابنك في وفاة ابنتك ليس أمرا هينا، لقد فقد صغيريه الوحيدين»

لا تركز رؤى مع تعليقات الشابات المتتالية، بل تثبت نظرها على الثنائي الجالس أمامها، قال ذؤيب أنه سيُخرِج ضياء في نزهة قصيرة

ظنت أنه سيعيدها للمنزل بعد ساعة أو ساعتين على الأكثر، لكن نظرا للساعة الآن فقد استمرا في التنزه لأكثر من أربع ساعات، لا بد من أنهما قضيا الكثير من الوقت الممتع "معا"

ينقبض قلبها عند الكلمة الأخيرة، تظلم نظراتها للاثنان الواقفان مقابلا لها، تريد ابعادهما، وضع مسافة تفصل بينهما تتجاوز الأميال، لكنها لا تستطيع

«أتغارين من طفلة؟ هي لم تنهي مرحلتها الثانوية حتى»

تعليق ذؤيب السابق على استيائها المعتاد يجعلها تهدأ، إنها طفلة، طفلة سيعود والدها لأخذها في يوم ما، بعكسها هي، زوجة ذؤيب الدائمة

تضع يدها على بطنها المنتفخة مؤكدة لنفسها الفكرة، لتقع عينها على عين ذؤيب المستمع بهدوء، يبتسم لها لتبادله الابتسامة، نعم ليس عليها القلق

«أتعلمين أن ابنة عمنا الميتة كانت تشبهك؟»

وسط هذه الأجواء تقولها إحدى الشابات مخاطبة ضياء التي تتسائل باستغراب: «تشبهني؟»

«نعم، من باب التفكير على الأرجح، فقد كانت الوحيدة التي تفضل الحرارة وتحتملها»

لا تفهم ضياء مقصدها في بادئ الأمر، لكنها تستوعبه بعد ملاحظة نظراتها على ثيابها، هل تقصد الحجاب؟ بعد الملاحظة فهن يبدون كقريبات رؤى، وبالتالي قريباتها هي الأخرى، وجميعهن سافرات، يبدو أن عائلة والدها غير محافظة

«احتمالنا لحرارة الدنيا خير من أن نشوى في نار جهنم»

تجيب ضياء بابتسامة مجاملة، لتقول إحداهن:

«لكنك صغيرة، عيشي حياتك ومن ثم اِلتزمي، الحياة أمامك»

«الموت لا يعرف صغيرا أو كبيرا، قد يزورنا في أي لحظة فتخيلي أنني أستقبله وسط قيامي بمعصية عظمى، إضافة إلى هذا فأنا لست صغيرة، القانون ليس المقياس الوحيد لعمر الفرد»

جواب ضياء جعل تعابير رؤى تعتم، تحدق في ذؤيب لتجده يتأمل ضياء وابتسامة إعجاب تعلوه، تمر الدقائق تتناقش فيها ضياء والشابات بينما نظرات ذؤيب لا تنزل من عليها

«أتغارين من طفلة؟»

تقبض رؤى يدها بينما تلك الجملة تتردد في ذهنها، الآن، ستكون صادقة مع نفسها وتتقبل حقيقة غيرتها من هذه الطفلة

*

بوريزا
قصر عائلة مياس

يعبر تركي البوابة الرئيسية والجا الحديقة الأمامية للمنزل، هذه الخضرة الجميلة والألوان الزاهية التي تتشبع بها كل زاوية من المكان ستغادره مع حلول فصل الخريف

نعم، انتهى الصيف، وانتهت مسيرة السماء الزرقاء الصافية، زرقتها تذكره بلون أعين نصف أفراد عائلة مياس الموروثة من الجدتين بلوميريا وفلوميريا ذات الأصول الأجنبية، بينما النصف الآخر فأعينهم غارقة في البني وما شابهه من أسود والعسلي، ألوان داكنة كعيون كبيري الأسرة هشام وهشيم، صاحبا الدماء العربية الأصيلة

أما اللون الأخضر فلا يملكه أحد غيره .. هو الذي ورثه من والدته .. وشخص آخر ورثه من المرأة ذاتها .. ذئب أخوه غير الشقيق، والذي من يراه سيحسب أن عيني أمهما قد انتزعت منها ومُنِحَت له من فرط تماثلهما

يقترب تركي من مجموعة الأطفال المجتمعين أمامه، ليمد يديه عابثا بشعر الفتى الأسود الحريري، يرمقه الأخير بارتياب من الغريب الذي أمامه ليتراجع محاولا الإفلات، لكن

يدي تركي تمنعه شادة على شعره ببعض القوة بينما يأخذ فمه في إرسال كلمات محملة بحقد ملّ من كبته: «بكم تبيعني الياقوتتين الزمردتين أسفل حاجبيك؟ أيها الصعلوك»

«تركي أفلت الصبي!»

صياح من خلفه يجيء من "ركان" الذي تقدم مسرعا ليبعد الفتى بعد صراخ البنتين نداءً له، يرمق ركان الأطفال بحزم: «ذئب، كارمن وياسمين، عودوا لداخل المنزل وجرجروا ريان من على مائدة الإفطار وسارعوا للسيارة، أبواب المدارس لن تبقى في انتظاركم»

يطلق الأطفال العنان لأقدامهم مصغيين لأوامر ركان، بعدما ألقوا على تركي نظرات ارتياب وعتاب لأنه أفسد عليهم لعبهم بماء النافورة

يبتسم الأخير ساخرا من الرجل الواقف أمامه ليلقي التحية: «كيف حالك قريبي الفاشل، هل تلك بنتيك؟ من المؤسف أنهما ورثتا بشاعتك عوضا عن حسن والدتهما»

يشد ركان على قبضته في محاولة لكبت غضبه قبل أن يقول بحدة: «تركي رجاءً لا تبدأ شجارا آخر»

«آخر؟ لا تقل أنك تعني أن ما حدث في الحفلة كان بسببي؟ لقد حاولت أن أعبر عن شوقي لصديق طفولتي الذي لم أراه منذ سنين طوال إلا أنك أجبرتني على استخدام المسدس، سامحك الله»

«نعم أنت محق الخطأ خطئي، قل ما تشأ، لكن...»

يقولها ركان مدعيا الهدوء ليردف بتهديد: «لا تقترب من ذئب مجددا»

يميل تركي شفاهه بسخرية لاذعة: «ولما؟ هو ليس أخاك بمفردك، إنه أخي كذلك»

«نعم! أخاك الذي كنت تساوم عيناه للبيع قبل لحظات؟ لن أنصدم لو جاء اليوم الذي أجد فيه اسمه ضمن قائمة بضائع السوق السوداء»

يجيبه ركان باستهزاء قبل أن يعود الأطفال الثلاثة رفقة ريان الناعس متجهين للسيارة مناديين عليه من أجل إيصالهم للمدارس

يحرك الأخير جسمه مبتعدا بعدما ألقى آخر كلامه بحزم: «لقد مرت أعوام يا تركي والحياة تسير، الجميع عان من ما حصل، مثلما فقدت والدتك فنحن فقدنا والدتنا

وأخانا وروح كل واحد فينا، نتائج ما حدث آذانا أكثر منك لكننا لا نزال نقاوم، عش حياتك بعيدا عنا ولا تبحث عن الانتقام، أنت في الجانب الخاطئ لسوء حظك»

يحدق تركي بركان المبتعد وقلبه يتوقد نارا تسقى بذكريات ما حدث، هل قال أنه في الجانب الخاطئ؟!

«ركان، سحقا لك أيها المغرور البائس، كل ما حدث بسبب والدك، أقسم أني لن أسمح لدماء والدتي بالذهاب هباء»

وسط شتائمه الداخلية يضرب الأرض بسخط قبل أن يعود لسيارته متجها للعمل، الغضب ينهشه، والذي يزيده سوءً هو عجزه عن فعل أي شيء

*

[ذكرى]

في الحديقة الخلفية للبيت الرئيسي لعائلة مياس، يرمي أربعتهم حقائب المدرسة أرضا قبل أن يتسابقوا نحو المسبح ويقفزون، يغوص أربعتهم تحت الماء لثوان ثم يخرجوا رؤوسهم ويطلقون الضحكات العالية إثر أشكال وجوههم
يكملون اللعب متبادلين أطراف الحديث، أخذوا اليوم الإجازة لذا عليهم التخطيط جيدا لما سيقومون به في العطلة، سيجهزون قائمة نشاطات ممتلئة تتصدرها حرب المياه، هذا ما اعتادوا على فعله منذ أن كانوا أطفالا

ينقسمون لفريقين، التوأم سعد وسعود ضد توأمهم الثالث ركان وابن خالهم تركي، وقت طويل يقضونه في التراشق بالمياه قبل أن يقاطعهم صوت المرأة المشتعلة غضبا: «تركي ما الذي تفعله هنا؟ درس اللغة الصينية بدأ منذ أكثر من ربع ساعة بينما أنت هنا تضيع الوقت، هيا أسرع معي للمنزل!»

يتوقف الفتيان عن اللعب، إنها أم تركي، يجيب ابنها محاولا استعطافها: «لكنها الإجازة أمي، اسمحي لي بأخذ عطلة من هذه الدروس ولو ليوم واحد، أريد إمضاء الوقت مع أبناء عمتي»

«لا تكن غبيا! كيف تريد أن تبقى معهم ودرجاتك الدراسية أسوء من خاصتهم؟ عليك أن تكون بمثل مستواهم قبل مرافقتهم، والآن هيا معي سريعا»

يلتزم التوأم الصمت على مضض لعلمهم أن دفاعهم عن ابن خالهم لن يزيد الوضع إلا سوء، إنه الحوار ذاته الذي لا تكف هذه المرأة عن قوله، مديح ضخم لهم وذم حاد تنهال به على ابنها، وهذا كله لأنها ...

«خالتي سحر، دعي تركي معنا هذه المرة رجاءً، نحن نريد اللعب قليلا، أما بخصوص اللغة الصينية فسأدرسه بنفسي عندما ننتهي»

يقولها سعود بنظرات استعطاف قبل أن يردف بخبث مانعا إياها من الرفض: «صحيح! أتعلمين أن أبي رفقة جدي في مكتبه الآن، ما رأيك أن تحضري لهما بعضا من شايك اللذيذ؟»

«عزام هنا؟»

تهمس مندهشة بصوت مسموع قبل أن تغادر نحو المنزل قائلة: «لا بأس فلتفعلوا ما تشاؤون»

«خبيث!»

يقولها كل من سعد وركان أما تركي فتحتد ملامحه بانزعاج سائلا: «لما ذكرت أمر والدك؟»

يهز سعود كتفيه بعدم مبالاة سابحا بهدوء: «لأنها ستهتم به وتنساك، إنها واقعة في حبه»

يضيق حال تركي أكثر، لم يكتفي من إهانات أمه له وها بمشكلة أخرى تظهر، يصرخ منكرا لكلام سعود إلا أن الأخير يوقفه ببرود: «لا بأس تركي، لا تنكر شيئا واضحا كوضوح الشمس، لا تغضب فهذا ليس خطأك، إنها مشاكل البالغين التي تأبى الانتهاء، مشاعر مزعجة وشجارات لا متناهية بين والدينا، لقد تعودنا على الأمر، حتى لو انفصل أبي وأمي فلا بأس، لقد قامت الحرب بينهما بالأمس كالعادة والآن أنا وإخوتي نضحك ونلعب وكأن شيئا لم يكن»

يردف بعدما باغت الفتيان الثلاثة بموجة ماء أغرقتهم: «فلنعش حياتنا ودعنا لا نضيع شبابنا على مشاكل البالغين»

بعد رده يتناسى تركي انزعاجه لينتقم ثلاثتهم من سعود الذي أخذ يملأ المكان بروحه المرحة، والتي نقلها للبقية في ثوان معدودة كعادته

*

الفصل التاسع

بوريزا
الـقـريـة

«أهلا بدجاجتي الصغيرة»

ذاك الصوت الذي لا تنكر أنها افتقدته، تستدير نحوه مبتسمة: «سلام! ماذا تفعل هنا؟»

«أهكذا ترحبون بضيوفكم في هذا المنزل؟»

لا يكاد يكمل تعليقه وها بضياء تسرع لتخطفه بحضن عميق: «اشتقت لك»

يضع يده على شعرها مبعثرا إياه بشقاء: «من يصدق أن صاحبة الفم الذي يقول هذا هي ذاتها التي ألمت عليّ شباب القرية»

دون أن تتركه تجيبه بصدق: «سكان المنزل ليسوا سيئين لكني أشتاق لبعض من رائحة حياتي السابقة»

إجابتها تجعل ابتسامته تذبل قليلا، ضياء، صغيرته يبدو أنها وحيدة، عمه عزام، قد يتفهم ما فعله لكن أي قلب يملكه حتى يقدر على إبعادها بهذا الشكل

«والآن أرشديني إلى جميلتنا رؤى، أحضرت لها بعض الهدايا التي تناسب امرأة حامل ستلد بعد أيام»

«لا تخبرني أنك اشتريت بعض الثياب للرضيعين»

«كيف علمت هذا؟»

«عليك جلبها يوم الحفل»

«لا أظنني سأكون متواجدا هنا، لدي رحلة عمل»

وسط دردشتهم، يقاطعهم ذؤيب برفعة حاجب: «تبارك الله على العاشقين، ألستما بعيدين عن بعضكما البعض أكثر من اللازم؟»

يكاد بجيب سلام لولا ضياء التي تقول بهمس متمسكة بذراعه: «ما رأيك بذوقي، حبيبي وسيم صحيح؟»

لا يجيبها شيء سوا نظرات ذؤيب وسلام التي تكاد تنطق قائلة أن تعليقها غير مضحك بتاتا، تزفر ضياء بتململ مردفة وهي تترك ذراع سلام: «إنه أخي بالرضاعة»

وتسأل سلام متجاهلة تفاجؤ ذؤيب: «هل ستبيت؟ سأحضر لك البيتزا»

«إنه عرض لا يمكن تفويته»

يجيبها سلام بابتسامة محبة ليقاطعه ذؤيب مبتسما بلؤم ونظراته على ضياء: «لا أنصحك يا ابن عمي، ستصاب بتسمم غذائي»

أما هي فتلكمه بخفة وسط سيرها متوجهة نحو المطبخ: «أتمنى ألا تغير رأيك حينما تتسلل الروائح الطيبة لجيوبك الأنفية»

«علاقتكما تحسنت للغاية، أتمنى ألا تثير رؤى الفوضى بخصوص هذا الشأن»

يقولها سلام بعد ذهاب ضياء ليجلس على الأريكة، يبتسم ذؤيب بسخرية متذكرا الأيام السابقة، والتي شهدت إزعاجا كبيرا من طرف رؤى الغيورة من ضياء، يتمنى أن تكون هذه الحساسية أحد أعراض الحمل لا أكثر

يجيبه مغيرا الموضوع: «ماذا بخصوص تحقيقك؟»

«الأمر معقد بعض الشيء، لست متأكدا لكن من الأفضل نسيان الأمر وعدم التوغل مع الشرطة لأن الطريق مسدود»

جواب سلام جعل حاجب ذؤيب يرتفع ليقول بحدة: «ماذا تقصد بعدم التوغل مع الشرطة؟! ماذا عن المتتبع الذي أخبرتك عنه قبل فترة؟ هل علي البقاء في انتظاره لغاية أن يقوم بإيذاء أحدنا؟»

رغم حدة ذؤيب إلا أن سلام يصدمه بجوابه الهادئ: «الحل الوحيد هو الذهاب بعيدا عن مصدر المشكلة»

«تحدث بوضوح، أبتعد من من؟»

«جدي هشام، ماضي الجد يفسد حاضر الأحفاد»

تضيق نظرات ذؤيب بعدم فهم، وقبل أن يستفسر أكثر تجيء سلام مكالمة هاتفية، يجيب عليها لثواني قبل أن يغلقها ويخاطب ذؤيب:

«أذكر الذيب وهيء له القضيب، جدي يحتاجني من أجل بعض الأمور القانونية، إعتذر من ضياء وأبلغ تحياتي لرؤى رجاءً»

*

هاسلاند
في البنك المركزي

«المجموعة الثانية فلتستعد، دقائق وسيحين دورنا»

يصيح ماكس بهذا في الساحة المنعزلة عن مرآ العيان، حيث يقبع جميع أفراد مجموعته التي ستتقدم بعد لحظات للداخل من أجل مساعدة المجموعة الأولى في حمل أكياس النقود والمجوهرات نحو العربات

الآن يحتاج لإيجاد دميتري من أجل التأكد من تقسيم العمل بين الجميع، كونه الرئيس هنا وهو مساعده الأيمن فتقسيم الأدوار هي مهمتهما الأساسية، لديهم وقت محدد ضيق يجب استغلال كل ثانية منه وإتمام المهمة بنجاح قبل أن تعلم الشرطة بمكانهم ليس وكأنها ستعلم بسهولة، لا يظنها ستفكر في أنهم سيستعملون المجاري للتسلل أسفل المصرف من أجل السرقة، استغرق الأمر أشهرا لتجهيز المكان وحفر ثقب أسفل خزنة المال الرئيسية وتكسير الأرضية دون ترك أدنى دليل على ما يحدث وجذب الأنظار

«أهلا ماكس، هل تحتاج لمساعدة؟»

يسأل فارس ليجيب ماكس بانزعاج: «دانيال، إنه دميتري، لا أعلم أين هو»

«أوه، إنه هناك، يلعب بالهاتف»

يجيبه ليردف بتوتر: « لكن لا تغضب، لابد من أنه احتاجه لأمر هام»

يتفهم ماكس توتر فارس الجلي، الجميع يعلم صرامته اتجاه استعمال الهاتف أثناء المهام، دميتري الطفل، سيملأ عقله الخاوي ببعض اللكمات

يصل ماكس نحو دميتري، يسقط عليه بسيل من الشتائم ليخبئ الآخر الهاتف ويحاول تهدئته، لولا الوقت الضيق لعلمه كيفية احترام القوانين، أما الآن، فقد حان موعد البدء

حسب مخطط دقيق، البعض يستلم الأكياس والآخر يحملها لعربات النقل، بسبب أهمية العملية وشهرة البنك فيستلزم الأمر عددا كبيرا من الأيدي، سواء من عصابة الأوركيد أو عصابة هوشي، سينجح الأمر و تتحسن علاقة العصابتين بشكل كبير

يقومون بالأمر، تمر دقائق قليلة، وقبل أن ينهون القسم الأول من المسروقات حتى، يرن هاتف ماكس، رئيس المجموعة الأولى يتصل، يجيب باستنكار: «ما الأمـ..»

«ماكس، اهرب ومجموعتك بسرعة، الشرطة تلف المكان»
«ماذا؟ ما الذي تعنيـ..»

يقطع صياح ماكس صوت صراخ، ضجيج الشرطة، ينتقل الصراخ لأعلى المجاري تحديدا عند الثقب أسفل الخزنة، لقد تم الامساك بالمجموعة الأولى، على البقية الهرب
«الجميع، اتركوا الأكياس وانسحبوا!»

يصرخ ماكس على أفراد مجموعته ليطلق الجميع الرياح لأقدامهم نحو مدخل المجاري، أما هو فيحرص على البقاء في الخلف من أجل التأكد من نجاة القدر الممكن من الأعضاء وحماية ظهورهم من أفراد الشرطة القادمة من جهة الثقب

«فلنفر ماكس، لا نستطيع هزيمتهم إنهم أقوى منا»

يخاطبه دميتري آخذا في الهرب بعدما نفذ رصاص مسدسه ليؤكد على كلامه فارس ويفعل المثل ثم يتبعهما هو أيضا، نحو الجزء الآخر من المجاري، حيث دخلوا، لا يظن أن الشرطة قد وصلت إلى هناك بعد، عليهم الإسراع

يحطم آماله الضجيج الذي اِلتقطته مسامعه عند اقترابهم من هناك، صوت الشرطة، لقد وصلوا إلى هناك أيضا، هل حوصروا حقا؟

يتوقف ماكس عن الركض بذهول غير قادرا على الاستيعاب ليمسك فارس ذراعه ويجره خلف دميتري الذي قال مغيرا الطريق نحو إحدى المسارات الفرعية: «لا تقلقوا، هناك مخرج سري من هذه الجهة، اتبعاني»

أما ماكس فلا يزال تحت وطأة الصدمة، كيف حدث هذا؟ لابد من أن عددا كبيرا من أفراد العصابة قد أُمسكوا، لم يكن من المفروض أن تجدهم الشرطة بهذه السرعة، هناك خطأ بالتأكيد

«كيف فعلوها؟»

يهمس بصدمة أثناء ركض ثلاثتهم ليجيبه فارس بهمس مماثل هادئ للغاية: «بل إن صح التعبير، من أخبرهم؟»

ينظر ماكس نحوه بصدمة، لا يستطيع أحد إفشاء الموقع، خطة المجاري لم تكن معروفة إلا لديه والزعيم وبعض من الرجال الثقات، حرص كل الحرص ألا يعلم المشكوكين فيهم عن الأمر، وحتى الثرثارين كدميتري، أما بقية الأعضاء فلم يعلموا إلا عندما توقفت العربات بهم هنا، لا توجد طريقة لحدوث هذا

«لكنه أمر غريب، جميعنا لم نكن نعلم بتفاصيل الخطة إلا قبل دقائق، عند وصولنا إلى هنا تحديدا، لا يستطيع أحد الوشاية خاصة مع عدم السماح باستخدام الهواتف، تم نزع هواتف الجميع ماعدا هاتفاكما أنت ودميتري لأنكما الرئيسان وفي حاجة له، ومن المستحيل أن تفعلا هذا»

يقولها فارس مدعيا التفكير، ليردف بنظرة ثابتة على ظهر دميتري المقابل لهما والذي لا يستطيع سماعهما: «على كل، كم هو مذهل أن يعرف دميتري طريقا مختصرا كهذا، ليس وكأننا كنا في حاجة لها أو نتوقع حدوث شيء بهذه الفظاعة»

وسط ثرثرة فارس التي تبدو وكأن البراءة تلفها، يشرد ماكس محاولا الاستيعاب، إنه محق، لابد من أن دميتري كان يعلم بأن شيء كهذا سيحصل وإلا لما بحث عن مخرج إضافي، يتذكر استخدامه للهاتف سابقا أيضا، ولن ينسى كلام دانيال سابقا عن كون علامات الخيانة التي باتت جلية عليه

تحتد تعابير ماكس بشكل مرعب لتثقل خطاه، لابد من أن دميتري الواشي، لم يكن ينتظر هذا منه أبدا

«سحقا، كنت أعلم أنك مجرد مهووس لا يهمك سوا سفك الدماء، لكن لم أتوقع أن تكون واشيا أيضا، كيف تجرؤ على هذا بينما كنت أتخذك بجدية رفيقا حقيقيا»

يصيح بها ماكس محملا إياها بكل ما حملت الأرض غضبا، أما دميتري فيستدير باستنكار دون إدراك لما يحدث

«ما الذي تقول...»
لا يستطيع دميتري إكمال سؤاله بسبب رصاصة مسدس ماكس التي اخترقت عينه وجمجمته، يتوقف الآخر عن الركض رفقة فارس ليكمل تفريـغ بقية الرصاص برأس الجثة الهامدة

«دميتري، الوغد الحقير، كيف تجرؤ على الخيانة؟ بئسا لك، فلتتعفن هنا ولترثيك الجرذان، أيها الخائن!»

لحظات ثقيلة تمر، يتوقف ماكس عند انتهاء الرصاص، صدره يصعد ويهبط بشدة

لا يستطيع استيعاب شيء غير صوت أنفاسه، رأس دميتري المهشم، ونظرات فارس المذهولة
كم هذا كريه

*

بوريزا
ليلا .. القرية

«بت لا أحتمل الوضع أكثر، أعد هذه الغريبة لبيتها الآن!»

وسط عمله على الحاسوب، يضغط ذؤيب على جبينه إثر وجع الرأس الذي باغته وسط تذكره للمشاجرة السابقة التي افتعلتها رؤى، أصابتها موجة جنون أخرى فور إحضار ضياء بعض البيتزا لهما للغرفة

«المجنونة متى ستلد ويرتاح الجميع؟»

يزداد عبوسه بسبب طريقة التفكير التي باتت تملأ رأسه، يعلم أن الحمل ليس سهلا، سيتحمل نوباتها لو كان هو المتضرر الوحيد بكل رحابة صدر، لكن إساءاتها المتكررة لضياء تجعل أعصابه تنفلت

«أعد هذه الغريبة لبيتها»

يحدق في كف يده، هذه الكلمات جعلته يفقد صوابه ويصفعها، ورغم صدمة ضياء من شتائم رؤى لها إلا أنها ظلت تمسك به طالبة منه الهدوء وترك زوجته الحامل وشأنها، لكن بدل أن يهدأ الوضع حصل العكس وازداد سوءً، رؤى المجنونة انقضت على ضياء آمرة إياها بالابتعاد عنه

«يا رب أسألك رحمتك»

يقولها بتعب لينهض فور سماع الأذان، سيذهب للصلاة بالمسجد، وبعدها سيحل الأمور بطريقة ما

يغلق الحاسوب ليسير نحو الباب، لكنه يتوقف فجأة أمام مرآة المنضدة، هل يخيل له سماع صوت خطوات؟ لا يكاد يؤكد فكرته وها به يشعر بفوهة مسدس على رأسه

«ماذا تريد؟»

يسأل ذؤيب الرجل الملثم الممسك للسلاح، والذي تنعكس صورته على المرآة، ما كان يخشاه حصل بالفعل، لقد عادت تلك الأيادي للعبث، يردف بهدوء: «أتريد المال؟ سأعطيك بقدر ما تريد»

استسلامه الجلي ليس نابعا من باب الخوف على فقدان حياته بقدر قلقه على سكان المنزل، يتمنى أن يكون أقصى ما يريده المجرم هو المال، لكن الأخير يخيب ظنه بإجابته: «أين هي الخريطة؟ لقد بحثنا عنها ولم نجد مخبأها»

تيبس ذؤيب في مكانه بنظرات منصدمة، كيف ولما ومن يبحث عن هذه الخريطة؟ ظنّ أن أمرها قد انتهى منذ زمن طويل

يعض على شفاهه بورطة، إنها ليست شيئا قد يتخلى عنه بسهولة، ما الذي عليه فعله؟ ربما عليه تضييع بعض الوقت ريثما يجيء أمزيان للبحث عنه
ينوي فعلها لكن كلام المجرم يكاد يقضي على خلاياه الاستيعابية

«عند إنقاذ السيد جوزيف لم يتم إيجاد الخريطة معه، لابد من أنك من أخذها كونك آخر من كان في المكان حينها»

«لا أعلم عن أي جوزيف تتحدث عنه»

«إنها الهوية الجديدة للسيد راشد، لا أظنك تجهل هذا الاسم، والآن أين هي؟»

إجابة المجرم التي تلاها ضغط أقوى بالمسدس على رأسه لم تكن كافية لإيقاظه من هول ما سمعه، إنقاذ؟ هل راشد حي؟

أثناء محاولات ذؤيب لترتيب أفكاره يصلهما طرق على باب الغرفة، لا صوت إلا لأنفاسهما، يظنان أن الطارق سيغادر لكنه يفتح الباب مستأذنا: «ذؤيب هل أنت هنا؟»

كانت ضياء ذات الأعين المنتفخة والصوت المبحوح إثر بكاء شديد، تسمرت في مكانها فور رؤية المنظر، رجل يوجه مسدسه على رأس ذؤيب، يسرع المجرم بتوجيه مسدسه نحوها بتوتر ناويا الإطلاق عليها لكن ذؤيب الذي أظلمت عيناه بالفعل ضرب يده ليسقط السلاح، ومن ثم قفز مصارعا إياه

«ضياء أسرعي ونادي أمزيان!»

يصرخ ذؤيب عليها من أجل طلب النجدة، لكنها لا ترد، بل تظل متيبسة مكانها على نفس الحالة، بنظرات جاحظتان تشاهدهما، يعيد الصراخ عليها، رغم تمارينه الرياضية إلا أنه لم يصل بعد لجسد يتحمل الصراع مع مجرم كهذا، لكنها لا تجيب، لا تبدي أية ردة فعل

بل سرعان ما تغمض عيناها، ويميل جسدها ليسقط أرضا مغشيا عليها

الفصل العاشر

بوريزا
.. قبل سنوات ..

«لطيفة أحببتها!»

تصيح بها ضياء، الصغيرة التي لا تتجاوز السابعة من عمرها، لتمسك دمية الدجاجة وتضمها بسعادة غامرة

لكن سرعان ما تقول بحزن وسط تحديقها في الصبي الذي أمامها والذي كان من أعطاها الدمية سابقا: «ماذا عنك؟ ألا تملك دجاجة خاصة بك؟»

يطلق سلام، الفتى الذي هرب من الحصة المدرسية، ضحكة مستمتعة ليعبث بشعرها مجيبا إياها: «حسنا، أنت هي دجاجتي الخاصة من الآن وصاعدا»

«حسنا!»

تهتف بها في فرحة لتقلد نقيق الدجاج وسط ضحك سلام الهستيري، إنها حقا تحب الدجاج، لو كانت طفلة أخرى مكانها لبدأت في البكاء بعد تشبيهها بحيوان كهذا

«اشش أخفض صوتك»

تنبيه ضياء يجعله يخفض صوته، يمسح دمع ضحكه متأملا إياها أثناء لعبها مع دميتها باستمتاع طفولي

يبتسم بحب، رغم أنها أخته بالرضاعة إلا أنّ لها مكانة عميقة في قلبه، مكانة تنافس مكانة رؤى حتى

يحبها، لدرجة أنه قد غامر بحياته، هرب من مدرسته وتسلل لهذا المنزل

تتغير نظراته الدافئة لأخرى ذابلة بعض الشيء، كم يتمنى لو كان واقعهم كواقع الأناس الطبيعيين، بعيدا عن المشاكل العائلية المعقدة

يرمي نظراته على أرجاء المنزل الأنيق الذي يجلسون بداخله الآن، إنه بيت أمه سحر، والتي فضلت ترك والده والزواج بابن عمه، والد ضياء

يعاود التحديق في ضياء الجالسة، يلحظ الجراح التي تملأ جسمها، لابد من أنها بفعل والديها

والدها الذي غيبت والدته عقله، فقد كانت اسما على مسمى، تمارس السحر، ووالدتها التي أصابها الجنون، وباتت تلومها على كل ما يحدث

هذا كله بسبب أن المصائب بدأت تتوالى منذ لحظة ولادتها، بدءً بطرد الجد لوالدها عزام، انتهاءً بسرقة سحر له منهم، ومن يعلم؟ القادم قد يكون أسوأ

«ما بك سلام؟ هل تشعر بالجوع؟»

يقاطع تفكيره سؤال ضياء القلق، يضحك مجددا على طريقة تفكيرها، ليغير الموضوع سائلا: «هل فارس من أحضرك؟»

«لا بل سعود»

تجيبه لتردف بشكوى: «لم أرى فارس منذ أيام، بات ينام خارج المنزل مؤخرا، حتى راشد أصبح يقلده، يا لهما من غبيان، أما ركان وسعد فلا يهتمان بشيء غير عملهما، الوحيد الذي يهتم لي هو سعود»

ثم تردف عائدة للعب: «قال أنه سيعود لأخذي قبل رجوع أبي وأمك»

«لقد بقيت ثلاث ساعات لعودتهما من العمل، فلنذهب للبحث عن شيء لأكله»

يقولها سلام ليقوم ممسكا بيد ضياء الصغيرة، يخرجان من الصالة التي كانت بالطابق العلوي، يصلان عند السلالم وقبل نزولهما نحو المطبخ يتسمران مكانهما فور سماع باب المنزل يفتح ليتلوه صدى ضحكات أنثوية

«لقد أتوا، سيضربوننا»

تقولها ضياء بفزع لتتجمع الدموع بعينيها، ليسحبها سلام عند أقرب غرفة: «اهدئي، فلنختبئ»

يقولها متوجها نحو السرير الضخم ليدخل ضياء أسفله ويختبئ هو الآخر، دقات قلبه تتسارع لتزيد عليه شهقات ضياء المكتومة، إنها خائفة

لن يلومها، هو أيضا خائف، والديهما ليسا أناس طبيعيين بالمرة

لكن فجأة يلاحظ تفاصيل الغرفة التي هما بها، إنها غرفة والديهما الخاصة، بئسا، يا لغبائه، كيف لم ينتبه؟!

ينوي الخروج وتغيير الغرفة لكن صوت الخطوات وصدى الضحكات القريبة تمنعه، يلتزم مكانه ضاغطا على يد ضياء في محاولة لتهدئتها، يدعو الله ألا يلاحظانهما

يدخلان الغرفة، ليكتم المختبئان أنفاسهما

لكن سرعان ما تعلو معالم الصدمة وجه سلام، إنها أمه، لكن الرجل الذي معها ليس عمه
رجل ذو شعر أشقر وعيون ملونة، إضافة لوشم زهرة الأوركيد المرسوم على طول عنقه
من هذا الرجل الغريب؟!
يشيح نظره عنهما ليغطي وجه ضياء بكفه، كي لا ترى المشاهد المخلة التي تحدث أمامها
بعد دقائق يشعر فيها سلام بالغثيان، يحتقر والدته أكثر، إنها اللحظة التي يتمنى موتها فيها

ولسوء الحظ، أمنيته تتحقق

في اللحظة التي أبعدت ضياء كف سلام من أجل أخذ بعض الهواء كان الرجل الغريب قد أخرج مسدسه ووجهه نحو رأس سحر، ليطلق الرصاص قائلا باستمتاع: «أتساءل هل سيذبل هذا المنظر قلب عزام أم لا»

ويغادر الغرفة تاركا ضياء التي أغمي عليها إثر المشهد المروع، وسلام الذي لا يزال في حالة ذهول

لكن لم يكفي ما حدث لإرضائه، لا يوجد طبق لذيذ بدون توابل، لذا فقد أشعل النار في المنزل، لتلتهمه سريعا

*

بوريزا
الحاضر، بغرفة ضياء

تفتح عينيها بصعوبة بسبب أشعة الشمس المزعجة، لتجد ذؤيب الجالس بالكرسي منشغلا بحاسوبه النقال، والذي سرعان ما يلحظ حركتها ليقترب منها بلهفة: «ضياء هل استيقظت؟»

«ما هذا السؤال الغبي؟ هل تراني لا أزال نائمة؟»

الرد الذي كان من المتوقع أن ترد به، نظرا لطبيعة حديثهما الساخر في العادة، لكنها هذه المرة تهمس بضعف ونظرات ذابلة: «أبي، أين هو؟»

يشيح ذؤيب نظره عنها متوترا من الإجابة، فور نقلها للمستشفى بعد إغمائها، والذي اتضح أنه انهيار خفيف للأعصاب، جاء عمه هرعا للطمأنة عليها، لكنه لم يلبث كثيرا قبل أن يغادر مجددا

«لقد كان هنا بالفعل، لابد من أنه سيعود لاحقا»

لكن كذبته كانت جلية لضياء التي غطت عيناها بذراعها مغيرة دفة الحديث: «أشعر وكأن رأسي سينفجر، أريد النوم أكثر»

يشعر وكأنها تحاول طرده، متأكد من أنها على وشك البكاء نظرا لحشرجة صوتها، يصيب ظنه فور التقاط سمعه لصوت شهقاتها المكتومة، يتنهد لينهض مغادرا الغرفة:
«سأجهز أوراق خروجك من المستشفى لنعود للمنزل»

ينتبه لآخر جزئية من كلامه، لابد من أنها ستزيد من بكائها، فأي منزل تملكه بعدما فضل والدها تركها وسط هذه المخاطر على إعادتها معه؟

يريد لومه وعتابه، لكنه يعرف عمه جيدا، عمه عزام طالما كان شخصا طيبا، ليس من النوع الذي سيرمي ابنته ويهجرها بهذه الطريقة الشنيعة إلا إذا كان لديه أسبابا مقنعة

أثناء سيره في الرواق يوقفه سلام الذي كان يركض في الرواق، يلاحظه ليتوجه نحوه لاهثا: «ضياء، كيف حالها؟!»

«لقد استيقظت للتو، لكنها تريد البقاء بمفردها لبعض الوقت»

يعتدل سلام في وقفته ممسكا بجنبه الذي آلمه بسبب الجهد العضلي الذي قام به أثناء الركض، فور أن سمع من رؤى ما حدث أجل سفريته وجاء بسرعة، يبدو أن انهيارها كان خفيفا هذه المرة والحمد لله

«أتمنى ألا تكون قد استعادت ذاكرتها»

همس سلام يجعل الكثير من الأسئلة تغزو رأس ذؤيب، ما الذي يقصده؟ هل هي فاقدة لذاكرتها؟

يتذكر فجأة جهلها السابق بخصوص هوية راشد، ظنها تبالغ أو تمزح، لكن الأمر يبدو جديا

«لا أظن أن أسلوب حديثك الغامض يلائم مهنتك كمحقق، موضوع جدي في بادئ الأمر والآن فقدان ضياء لذاكرتها، أريد تفسيرا ملائما»

يقولها ذؤيب بحدة وبعض العنف، الغضب قد بدأ يتملكه، حاول تمالك أعصابه منذ ليلة البارحة لكنه لا يستطيع

يزيده غضبا هاتف سلام الذي أخذ يرن، يلحظ اسم المتصل، فارس، قبل أن يرد سلام يخطف ذؤيب الهاتف من بين يديه

*

هاسلاند
في شقة فارس

سعادته بخصوص التقدم الملحوظ الذي قام به في سبيل تحطيم العصابة قد اختفت فور سماع خبر انهيار شقيقته الصغرى من طرف ريان، يتصل بوالده لكنه لا يجيب، ونفس الشيء مع إخوته، يتذكر ذؤيب، لكنه لا يريد الحديث معه، سيحاول الاتصال بسلام

«لقد رد»

يهتف بها فارس ليصيح: «سلام كيف حال ضياء؟ هل كان الأمر بذاك السوء؟»

لكن بدل سماع صوت سلام يجيئه صوت آخر، صوت لم يسمعه منذ سنوات، رغم الخشونة التي غزته بعض الشيء، وبخلاف المرح الذي اعتاد أن يملأه، هذه المرة كان الغضب والمقت من يحلان محله

«أيها الوغد! لما أنا آخر من يعلم بخصوص راشد؟!»

تحبس أنفاس فارس قليلا، كيف علم بالأمر؟ بماذا عليه إجابته؟ ليتأتئ: «ذؤيب ...»

يقاطعه ذؤيب مردفا بصراخ دون اهتمام لتبريره: «هل تستمتع بتعذيبي أنت الآخر؟ ما الذي فعلته لك؟ طالما رأيتك بمثابة الأخ لا أقل أيها الخائن»

ليستمر في الصراخ والشتم، يلقي كامل اللوم على فارس الملتزم للصمت، والذي يوجه نظراته للجالس مقابلا له

راشد، والذي بدت النار وكأنها أُلهِبَت مكان عيناه بدل بروده المعهود

«هيه ذؤيب اهدأ، سأشرح لك كل شيء لاحقا، والآن ودا...»

قبل أن يكمل فارس جملته وينهي المكالمة كان راشد قد خطف الهاتف منه، ليقول بكره جلي: «أهلا بالقاتل!»

يصمت الطرف الآخر مستوعبا هوية الشخص الذي يخاطبه الآن، صاحب الوجه الذي أرق لياليه وأيامه منذ سنوات، يستذكر كلاهما تفاصيل ذاك اليوم الشنيعة، ورغم الصمت المطبق إلا أن كلاهما يشعران بكره وغضب الطرف الآخر

ينوي فارس تهدئة الأوضاع، ظنا منه أن الهاتف سيحترق تحت شتائم الطرفين اللانهائية، إلا أن الصمت غير المتوقع يجعله متيبسا مكانه بحيرة، ويلتزم الصمت هو الآخر

ليقطع الصمت صوت ذؤيب القائل بغضب حاد ممزوجا بحسرة نابعة من الأعماق: «كنت سأسمح لضميري بتأنيبي لسنوات وعقود أخرى لو كنت ميتا، لكن بما أنك حي، واخترت حياة الذل، فأتمنى أن تنال مصير مالكتك وتتعفن في الجحيم»

لينهي المكالمة، تاركا فارس غارقا في حيرته وألمه على حال أصحابه، وراشد الملتزم للصمت

*

هاسلاند
قصر آل أمبروسيا

وسط الرواق المليء بأُطر الصور، يخط بقلم الحبر على دفتر دراسته، يكاد يكتب آخر كلمات رسالة الدكتوراه الخاصة به

يتوقف عن الكتابة ليرفع نظره مثبت إياه على صورة تلك المرأة الشقراء، ذات الأعين الخضراء الزمردية، لتبرز في ذهنه ذكرى شبيهتها

«يا ترى ما الذي حصل لها؟»

يحدث نفسه مفكرا فيها، لقد أبت مفارقة ذهنه منذ اللحظة التي قابلها، ليس بسبب جمالها وحسب، فقد اِلتقى بالأجمل، لكنه أحس بطاقة مغناطيسية تجذبه نحوها

«أظنني أُصِبتُ بالجنون، بت أتخيلها على أرض الواقع أيضا»

يهمس بها قبل أن يستوعب ما يراه، الشابة نفسها من المرة السابقة، بخلاف أنها ترتدي حجابا الآن، يقوم من مكانه لتلاحظه وتتيبس مكانها للحظات متوترة، لم تتوقع إيجاد أحدهم هنا

قبل أن تستوعب سوسن وجوده كان قد تقدم نحوها قائلا بحماس استغربته: «أيتها الآنسة، تبدين بخير، ما الذي حدث معك المرة الماضية؟ هل عدت لعائلتك؟»

«أوه سيد زياد، سررت برؤيتك، لقد جرت الأمور على خير والحمد لله»

تجيبه بهدوء بينما نظراتها مثبتة على الأرض بحياء، تشعر ببعض الخجل بعد تذكر الهيئة التي رآها عليها سابقا، أما هو فتتألق عيناه بسعادة غامرة، هامسا بداخله

«لقد تذكرت اسمي»

وقبل أن يضيف كلاما آخر يحمرّ خجلا هو الآخر، رغم رغبته في الحديث إلا أنه لا يوجد شيئا لقوله أكثر، وبعيدا عن كونه سيء في فتح المواضيع فهي لا تبدو كشخص سيرتاح أثناء تبادل الحديث مع رجل غريب، فهي تبدو ملتزمة

«في حال احتجتني ستجدينني في مجلسي اك، تخيلي أني لست موجودا وخذي راحتك، أنا أجهز أبحاثي فقط»

يقولها زياد مطأطئا الرأس ناويا الانسحاب، يسير عائدا أدراجه للحظات لكن سرعان ما يعود للوقوف أمامها صائحا بتوتر يحاول محاربته: «رجاءً آنستي هل يمكننا التعرف؟»

ترفع سوسن حاجباها بدهشة من الطلب غير المتوقع، هل هذا اعتراف؟ لكن هل قال تعارف؟ إذا هو من ذاك النوع من الرجال

«لا أقبل أن أكون جزئا من علاقة محرمة»

تجيبه باحتقار لتلتفت ناوية المغادرة وتأجيل زيارتها ليوم آخر، لكنه يفاجئها بتتمة حديثه: «إذا هل تقبلين بي زوجا لك؟»

تلتف نحوه والصدمة تغلف نظراتها، لا، بل تملأها، هل هو جاد؟

أما زياد فرغم دقات قلبه الجنونية وضغط دمه الذي يكاد يفجر أوعيته، إلا أنه يثبت نظراته بنظراتها، طالما شعر بسخف قول أن الحب قد ينشأ من النظرة الأولى، من الحمق أن تطلب الزواج من امرأة لا تعرف منها شيئا غير شكلها وصوتها، لكنه لا يستطيع مقاومة الشعور الذي يعتليه، طاقة الجذب المغناطيسي التي يشعر بها الآن أيضا أقوى من خلايا التفكير خاصته

«كوني لي مأثورتي التاريخية وسأكون نَقَّابك»

في هذه اللحظة الشاعرية، كانت لتنصدم من هذا الاعتراف الجنوني، لكن الصوت الجهوري الصادر من خلف زياد قاطعهما ليبدو لهما ذاك الرجل السبعيني المتقدم نحوهما بهيئته الوقورة وعصاه الثقيلة: «يبدو أنه كُتب لآل مياس بالاندماج مع آل أمبروسيا مهما مرت العقود»

«جدي!»

«هل أنستك هذه الحسناء دماء أختك؟ ورث أحفادي اختياراتي الجيدة»

كلام الشيخ الغريب ألجم زياد وجعله يطأطئ رأسه ليغرق في شعور العار، ليردف مخاطبا سوسن بابتسامة هادئة مشيرا لحفيده: «كيف لملتزمة مثلك اختيار هذا العاصي العاق؟ أتعلمين أنه في إحدى موجات سكراته السابقة قام بقتل أخته دون إدراك منه، قد تلقين نفس المصير مستقبلا»

«جدي هشام رجاءً!»

يقاطعه زياد بصياح متمنيا منه السكوت للأبد، متحاشيا النظر للمرأة التي سرقت قلبه، لقد نسي لبعض الوقت حقيقته الدنسة، كيف له أن يطلبها للزواج

شخص مثله عليه دفن نفسه في أعمق حفرة موجودة في هذا العالم
كان ينوي الاستدارة والهرب بعيدا عن نظراتها الباردة، لكنه لا يريد تركها بمفردها مع جده، غريب الأطوار

أما الأخير فينوي قول المزيد عابثا بأعصاب حفيده، لولا كلام سوسن الثابت المقاطع إياه: «رغم عدم معرفتي الجيدة بزياد إلا أنه لا يبدو لي شخصا سيئا في هذه اللحظة، لابد من أنه تغير، لكل منا خطأه وذنبه الخاص»

رغم لهجتها الباردة إلا أن كلامها وقع على زياد كالزلزال الذي حرك كيانه ليجعله يرمقها بعدم تصديق، ألم تكرهه بعد معرفة حقيقته؟

ليقاطع تساؤله قهقهة جده العالية، والتي تردد صداها على طول الممر، ليقول بنظرات إعجاب: «يبدو أنك عازمة على خطف المزيد من أفراد عائلتي العزيزة»

لا يفهم الآخران مقصده، يظن زياد أن الخرف أصابه أخيرا، لكنه يكمل الحديث مقتربا من الصورة المعلقة، والتي تعود لشبيهة سوسن: «بلوميريا، عزيزتي، أنظري كم كانت حسناء في شبابها، الآن وجهها مليء بالتجاعيد، منكمش للغاية، لو تسمع قولي هذا فستقتلني على الأرجح»

يطلق ضحكة أخرى قبل أن يجيب على سؤال سوسن المستنكر

«ألم تمت؟»

«كلا، لا تزال تستهلك الكثير من الأكسجين، ربما تعتبر من أسباب نقصه مؤخرا في العالم بسبب حركات التأمل التي تعشقها، التنفس العميق»

يستمر في الثرثرة قبل أن يصدم سوسن، أما زياد فملامحه لا تقرأ: «إنها زوجتي، وهذه صاحبة الإطار الذي بجانبها هي أختها وزوجة أخي أيضا، فاوانيا، هوس هذه العائلة بأسماء الزهور مرعب، لكن كم نحن محظوظان بإيجاد زوجتين حسناوتين في هذا البلد»

يبتسم متأملا صورة زوجته ليسترسل في الحديث كمن يروي قصة شبابه المملوءة بنشاط الصغر وحيويته: «كنت وأخي نعيش في قرية ببلدي الأم، بوريزا، كانت لدي خطيبة رائعة، كنت أنوي الزواج منها فور انتهائي من البعثة الدراسية التي أرسلت فيها إلى هذه الدولة، لكن عكس ما توقعت، اِلتقيت ببلوميريا، أحببتها وطلبتها للزواج»

يعلق بدفاع عن نفسه: «لا تتهميني بالخيانة، لكن الأخيرة تفوقت على حبي الأول بالجمال والنسب والمال، أي رجل طبيعي كان ليحبها، لكن والدها رفضني ورفض أخي الذي تقدم لشقيقتها»

ليتنهد مردفا بتأثر: «كم حزنت على أخي، أحب أختها كثيرا، لقد كانا ثنائيا جميلا، مزيج من البراءة والهدوء، لكن من الجيد أن الفتاتين عارضتا قرار والدهما وأصرتا على التمسك بنا، وضعتا والدهما بين خيار القبول أو هروبهما، وطبعا اختار الخيار الأول، وتزوجنا وعشنا في سعادة، سعادة لم تكتمل طويلا»

تتغير تعابير وجهه مع جملته الأخيرة، ليوجه نظرته الحادة نحو الإطار الأكبر، الرجل صاحب العينين ذوي المزيج الأزرق الرمادي، يبدو أنه والد الفتاتين وكبير العائلة، يردف: «هذا الوغد، لم يستطع الاستسلام، لفق تهمة علي وأخي ورمينا في السجن، بالرغم من أننا استطعنا الإفلات والتحرر بصعوبة فيما بعد إلا أن شقيقي لم يستطع تجاوز الأمر، انتكست صحته وفقد حيويته، أصبح لا يفارق أدوية الاكتئاب، كل هذا بسبب الوغد»

وتعلوه هذه المرة ابتسامة ساخرة: «ولأنه أخي العزيز وجب علي الانتقام، ببساطة، ذهبت لأقوى عصابة في البلد حينها، العصابة الجامعة للأوركيد وهوشي قبل إنفكاكهما الآن، توسلت لزعيمها كي يساعدني، أردت الكثير من المال والنجاح السريع، وافق الأخير على هذا، أمثاله يحبون العيون الحاقدة كالتي امتلكتها آنذاك، وفعلا امتلكت كل شيء، استطعت بناء ثروة في وقت وجيز، حرصت على إغراق عائلة زوجتي في إشاعات دنست تاريخها المجيد، وبعد المزيد من الوقت أخذتُ موقعها في السوق وأفلسَت، وبعدما حرصت على إذاقتها الويل، حرصت على نهاية تليق بها، بمقدار شرها، الموت حرقا»

يعاود اللين تغطية ملامحه مبتسما ببساطة قبل أن يتحسس الجدران

«من حسن الحظ أن هذا المكان لم تلحقه النيران، من الجيد تخليد وجوه هؤلاء البؤساء، بين الفينة والأخرى أقدم إلى هنا من أجل إنعاش روحي قليلا»

أثناء ثرثرته الطويلة، لم تستطع سوسن إغلاق عينيها من شدة الصدمة، من أي مادة مصنوع بها قلب هذا الرجل؟ كيف يستطيع الحديث عن هذا الجحيم بينما الابتسامة تعلو ثغره؟

تحاول التماسك، قدميها ترتجفان، لا يبدو وكأنه سيؤذيها لكن هالة مرعبة تحيط به، إنه مختل، لابد من ذلك

«ما علاقتك بالأوركيد؟ أمازلت تتعامل معها؟»

تسأله بينما يديها تتحسس على المسدس المخبأ بجيب عبائتها، ليجيبها ساخرا: «أتظنين حقا أن هشام مياس قد يستمر في التعامل مع أولئك الحمقى؟ ليس وكأنهم قادرون على الوصول لي مع إحاطتي بالعدد الكبير من الحراس والكثير من النفوذ»

ويهمس مردفا: «لكن الأمر لا ينطبق بالشكل نفسه على ابني العزيز عزام»

يهز رأسه أسفا ليأخذ في المشي مرددا: «الشيء الوحيد الذي ورثه مني هو العناد، لقد مرت خمسة عشر سنة منذ أن طردته، وعندما عاد الآن لم يعتذر لي حتى، لو أنه أصغى إلي لما ظلت العصابة تلحقه، حتى زوجته المسكينة، ابنة أخي، لقد جنت في النهاية»

يستمر في التذمر مبتعدا بينما عقل سوسن لا يستطيع استيعاب كل شيء، هل عزام الذي يتحدث عنه هو خالها نفسه؟ لا بد من أن الأمر كذلك، بربط كل الخيوط .. بعض الأحداث والكلمات من الماضي، أشكال أختيها وأسماء الزهور الخاصة بهن، كل هذا دليل على أنهن من هذه العائلة

فجأة تتذكر وجه ذلك الرجل، بسرعة تصيح منادية على الشيخ للمرة الأخيرة: «انتظر، قلت أن هذه العائلة قد أبيدت كاملة ماعدا زوجتك وشقيقتها، إذا من أين جئنا نحن؟»

يستدير رامقا إياها بفهم لمقصدها: «أنظري هناك»

يجيب مشيرا لصورة الشاب المجاور لصورة شبيهتها وأختها، يردف: «ذاك جدك، علمت فيما بعد أنه استطاع الهرب مع ثروة العائلة، حاولت القضاء عليه لكنه استطاع الفرار، لم أصر على اللحاق به بسبب زوجتي الملحة لترك شقيقها يعيش على الأقل، لقد عاش وأنحب طفلين، أصبحا رجلين فيما بعد»

يرفع إصبعين مكملا كلامه: «الأكبر والذي ورث ثروة العائلة هو عمك، شرطي صالح أنجب إبنا واحدا قبل أن يتوفى في حادث مؤسف»

وبنظرة ثابتة عليها يردف: «والأصغر أصبح رئيس الأوركيد الآن، أذكر أنه كان يملك ثلاث بنات»

دون أن تسأل أكثر كانت قد فهمت مقصده، الابن والبنات، لقد علمت هوياتهم بالفعل

تشعر بانقباض في قلبها إثر الصدمات المتتالية، لتركز بصعوبة مع صوت زياد المتسائل بصدمة تعلوه هو الآخر، كانت قد نسيت أمر تواجده

«ماذا عن ثروة العائلة هل أخذها الابن الأصغر؟»

«من الجيد أنني في مزاج جيد وإلا لما أجبتك على هذا السؤال الغبي حفيدي العزيز»

يقولها الشيخ بعدما أطلق ضحكة عالية مردفا: «لو كان ذاك الأخرق من ورثها لكانت الأوركيد قد حكمت القارة منذ زمن طويل، ثروة العائلة ليست بضع كيلوات من الذهب فقط»

يوليهما ظهره متجها لخارج القصر ملقيا آخر كلماته: «لابد من أن عزام قد أخفاها في مكان ما، لقد كان الصديق المقرب للابن الأكبر وآخر من اِلتقاه قبل موته، لهذا قرر تربية ابنه وبنات أخيه المهمل»

وبنبرة ساخرة تشرح الكثير: «لهذا ذاك الطفل مهووس في محاولة الضغط عليه في محاولة للحصول على الكنز»

*

هاسلاند
في بناية سكن الأعضاء

يجمع ملابسه في الحقيبة، لا يجب عليه نسيان أي شيء، البناية ستُخلى والجميع يغادر شققهم الآن

كيف لا يفعلون هذا وقد باتت حريتهم قيد التهديد، الشرطة قد تلف المكان في أي لحظة، لقد باتت على علم بأغلب أماكن اختبائهم بطريقة ما

يبتسم فارس ساخرا، هذه "الطريقة ما" لم تكن لتكون لولا الكنز الذي وجده في منزل والد راشد

«أيامك أيتها الأوركيد باتت معدودة»

يهمس بها بداخله بينما السعادة تكاد تسبب في انفجاره، يقاوم ابتسامته التي تريد شق وجهه ليسير في الرواق نحو باب الشقة، إلا أنه يتوقف قليلا عند صالة المعيشة محدقا في المستلقي على الأريكة مغط وجهه بذراعه

ماكس المكتئب، حالته تزداد سوءً يوما بعد يوم، يبدو أن دميتري كان محقا بخصوص حبه الشديد للعصابة

«وداعا أخي ماكس»

يقولها فارس بتأتأة مقلدا أسلوب دانيال الذي ابتكره، لن يطيل الحديث معه، يخشى أن يفرغ غضبه عليه

ينوي استكمال طريقه لخارج الشقة إلا أن ما خشي منه قد حدث، يصله صوت ماكس المتشبع بالثقل: «هل هذا كل شيء دانيال؟»

«ماذا تقصد أخي؟»

يقولها فارسا ببعض التوتر مدعيا البراءة، ليجيبه ماكس الذي أزاح ذراعه وكشف عن وجهه مثبتا نظراته على السقف: «هل هذا أقصى ما قد تصله ألاعيبك؟»

«أظنك تسيء الفهم أخي ماكس، علينا الذهاب الآن»

يجيب فارس في محاولة لإكمال طريقه والإفلات من الهراء الذي يسمعه، هل كُشِفَ أمره؟

يتأكد من تساؤله فورما رأى نظرات ماكس التي فارقت السقف لتستقر عليه بحدة، يأخذ فارس نفسا عميقا قبل أن يخرج السلاح من بين ثيابه ويطلق على ماكس النار

«عليه أن يقتل قبل أن يُقتَل»

إلا أن ماكس يستطيع تجنب الرصاصة والنهوض من مرقده، يقفز نحو فارس مخرجا سلاحه هو الآخر ليوجهه نحوه صارخا: «ما غايتك من هذه الخيانات دانيال؟ بل لأكون أكثر دقة أيها الغريب، طالما شككت بك، منذ اللحظة الأولى التي انضممت فيها للعصابة، لكنني خُدِعتُ بتمثيليتك في نهاية المطاف»

ويردف بحسرة: «هل تظنني لم ألاحظ ابتسامتك السعيدة بموت دميتري؟»

تتسع ابتسامة فارس ليطلق ضحكة عالية: «يبدو أنك لم تكن أعمى في النهاية»

ويردف وسط تصويب مسدسه هو الآخر نحو ماكس، متجاهلا سؤاله ليستفسر بفضول: «أخبرني كيف أيقنت صحة شكوك في النهاية ماكسي العزيز؟»

يعض ماكس على شفته بقهر، نبرة الحديث الساخرة، إنها عكس ما كان يبدو على دانيال تماما، الغريب الواقف أمامه ممثل بارع حقا

يجيبه مشيرا لبطاقة ملقاة بإهمال على الطاولة: «بعيدا عن حدسي فقد كان الزعيم من فتح عيني على الحقيقة، لقد طلب مني إعطائك هذه الدعوة»

وبحقد يكاد يفجره يصرخ: «لكن سأحرص على ألا تصل للموعد مهما كلف الثمن!»

وقبل أن يطلق النار صاح فارس بذعر: «رجاءً انتظر!»

يعقد ماكس حاجبيه شادا على السلاح، ما الذي يريده هذا الحقير؟ أما فارس فيردف باندهاش: «قتل شخص لم ترى وجهه الحقيقي بعد من الوقاحة صديقي»

ودون أن ينتظر ردا منه مد يده لطرف وجهه، ليسحب القناع وينزعه بشكل كامل ويلقيه أرضا، معلقا بابتسامة واسعة: «ألستُ وسيما؟»

تتسع عيني ماكس بصدمة، يتذكر هذا الوجه، إنه الجاسوس من الحفل السنوي

يكشر بحقد ليصيح قبل أن يطلق: «أيها ال...»

وقبل أن يكمل كلامه تستقر رصاصة من مسدس فارس في صدره، ليسقط أرضا ويقول فارس متقدما نحوه بحسرة مفتعلة: «كنت أريد الاستمرار في اللعب معك لكني لا أستطيع ترك الزعيم ينتظر أكثر»

ليتجه نحو الطاولة حاملا بطاقة الدعوة المزخرفة برسومات لزهور الأوركيد، يستدير سائرا نحو باب الخروج جارا حقيبته، وقبل أن يغادر يعاود الالتفات نحو ماكس مودعا إياه بنظرات شفقة ساخرة: «شارك محبوبتك في لفظ أنفاسها الأخيرة يا ابن الأوركيد»

*

بوريزا
منزل آل مياس

يستمر ريان في التحديق بشاشة الهاتف على أمل وصول إشعار من طرف ضياء لكن لا أمل، يضع الهاتف جانبا ليتنهد بضيق: «يا رب احفظ ضياء روحي»

لقد كانوا جلوسا على مائدة العشاء في اللحظة التي رن فيها هاتف جده، ليجيب ويلحظ الجميع بهوت بشرته، يسرع خارج المنزل، ليعود لاحقا ويسمع حديثه مع ركان كون ضياء قد تعرضت لانهيار طفيف

لكن بالرغم من التعب الذي كان باديا على جده إلا أنه لا يفهم سبب تمسكه بقرار إبعاد عمته وعدم إرجاعها

«يا رب اهدِ النفوس وأصلح القلوب»

لا يملك شيئا غير الدعاء، يعود للعمل على الحاسوب متذكرا آخر المجريات، هذا العام كان مليئا بالمهام المكلفة من طرف فارس، اختراقات ومراجعة بيانات، والآن عليه مراجعة قائمة الاتصالات الواردة على هاتف زعيم العصابة وفرزها

«عمي فارس، كيف استطعت التوغل بهذا الشكل، عليك الدفع لي جيدا هذه المرة»

يعلق ريان بإعجاب مخاطبا نفسه لتقاطعه أمه التي دخلت الغرفة دون طرق: «عزيزي ريان»

يلتفت نحوها بوجل بعدما غير صفحة الحاسوب لخلفية لعبة: «أهلا بأوركيدتي الجميلة، ماذا تريدين؟»

تحدق فيه لثوان، تلحظ توتره، هل كُشِف أمره؟ أما هي فتتنهد قائلة بيأس: «هل كنت تحدث ضياء؟ لا تقلق لن أخبر خالي عزام عن الأمر»

يبتسم ليهز رأسه كاذبا، من الجيد أن أمره لم يكشف، أما أوركيد فتردف مخرجة بطاقتين معطية إياها له: «تفضل، دعوتين مجانيتين لإحدى المطاعم المشهورة، خذ ضياء لها وحسن من مزاجها»

وتستدير مغادرة الغرفة بعد أن ألقت له غمزة: «لا تقلق سأحرص على ألا يعلم والدك وجدك بالأمر»

«أوركيدتي الجميلة الرائعة»

يهتف بها ليقفز ممسكا بالهاتف مراسلا ضياء بخصوص الدعوة المجانية، ومن حسن الحظ، تجيبه هذه المرة سريعا بالإيجاب

سيراها أخيرا

بعد دقائق من الدردشة بالرسائل النصية يعود لعمله، مراجعة أرقام الهواتف المتصلة بالزعيم، يصل لفئة الاتصالات المتكررة، يعمل بينما قلبه ينبض بسعادة وفرح

لكن شعوره الجميل لا يكاد يكتمل حتى يختفي فجأة ويتلاشى تحت تأثير صدمته، لما هذا الرقم موجود هنا؟

يحك عيناه بتكذيب، يشكك في قدراته النظرية، ما خطب عيناه التي باتت لا ترى جيدا فجأة

لدقائق يعيد قراءة الأرقام قبل أن يهمس بجزع: «لما رقم أمي موجود هنا؟»

الفصل الحادي عشر

يقف سلام وسط نزاع من العيار الثقيل، أجواء متشاحنة بين الأقارب بسبب مشاكل في العمل وماضي قديم لا ينبئ بالخير

يتنهد بيأس من الحوار العقيم القائم هنا والذي لا يشبه الحوار في أي شيء، هم في متجر عمه عزام الذي يترأسه حاليا ابنه ركان

قبل دقائق دخله تركي بوجه غاضب ليدعي أن هناك من يحاول سرقة المشاريع من شركة العائلة .. وبعد الكثير من التحقيقات والترصد وجدوا السارق قد ظل يتردد إلى جوار هذا المتجر، ركان ينكر معرفته لما يحدث لكن تركي يرفض تصديقه، لابد من أنه وجد الفرصة المناسبة لإقامة نزاع مع ركان الذي يكرهه

«لا بأس لا بأس اهدؤوا رجاءً، تركي فلتغادر المكان وأنا سأتكفل بالموضوع»

يخاطب سلام أخاه الرافض لمطلبه لكن اتصال من الشركة يجعله يغادر بحنق، يأخذ سلام نفسا عميقا قبل أن يوجه نظراته نحو ركان .. الواقف بشموخ، نظراته المتعالية أسفل حاجبيه المرفوعتين، وذراعيه الموضوعة فوق بعضها على صدره .. ليخاطبه بفحيح: «لا تفكر في تفتيش المكان فقط لأن ذاك الوضيع طلب منك هذا، حافظ على سلامتك وغادر المكان»

يصنع سلام ملامح بسيطة ليبتسم بمودة مدافعا على حياته أمام نظرات هذا الوحش، يعرف ركان منذ الطفولة، هو ليس بالشخص الجيد عندما يغضب: «لا داعي لكل هذه القسوة، أعلم أن اقربائي الأعزاء من المحال أن يعتدوا على حقوق الغير، سأحقق في الجوار لربما أجد هذا السارق، أخبرني تركي أنه ذو هيئة أجنبية»

وقبل أن ينفذ كلامه ويغادر المكان يوقفه تعليق ركان: «انتظر لحظة»

يتجه الأخير نحو الحاسوب ليطبع بعض الأوراق ويمررها لسلام مردفا: «لا أتشرف بمساعدة ذاك الأحمق وشركتكم لكننا لسوء الحظ عانينا من محاولات اختراق من طرف جهة أجنبية أيضا، استطاع ابن أخي اِلتقاط صورة للمجرم ومعرفة بعض المعلومات، لا أعرف ما الذي ستستفيده جهة كهذه من محل بسيط لكن ها هي نسخة من المعلومات التي توصلنا لها، أتمنى أن تساعدك»

يتناول سلام الأوراق ليشكره ويغادر، يستند على الجدار الخارجي للمتجر متصفحا ما بين يديه، السارق الذي يتحدث عنه ركان عامل من تلك الشركة؟! الشركة التي تسببت في

خطف ذؤيب العام الماضي، ظن أنها قررت التوقف عن العبث بعد هدوئها أثناء الأشهر الأخيرة لكن هابها تعود للعب بذيلها الآن

يعدل قامته لينوي الاتجاه لمقر عمل تركي من أجل مناقشته، يسير خطوات بعيدا عن المتجر ونظراته مثبتة على الأرض كعادته حينما يتعمق في التفكير، يعبر بجانبه أحدهم، لا يهمه الأمر كثيرا لكنه يرمي طرف نظره نحوه في استغراب لهوية الذي يسير خارجا في وقت الظهيرة

يعقد سلام حاجبيه باستغراب بسبب ملامحه، شاب أشقر في سن الشباب ترمقه عينيه الزرقاوتين بنظرات حادة، تمر الثوان قبل أن يدخل الشاب المتجر ويصل مسامعه صوت ركان المرحب: «مرحبا بابن أخي المشاغب، هل أجبرك سعد على القدوم مجددا؟»

يعود سلام للنظر أمامه والابتعاد بينما شعور غريب يخالجه، هناك شيء مريب خلف نظرات ذاك الشاب

.

.

.

يجلس ريان على الكرسي ليعود عمه للعمل وسط لعبه بالهاتف، لا تزال ساعة ونصف قبل موعده مع ضياء، لم يخبر أحد عنه بخلاف والدته

أمه، تهاجمه الأفكار حولها لكنه يتجاهلها، متذكرا الرجل الذي مرّ عليه قبل قليل، فور رؤيته عرفه مباشرة، هو الرجل نفسه الذي قام باختراق حاسوبه مرارا وتكرارا في السابق

«عمي، أخبرني من يكون ذاك الرجل الذي قابلته أمام باب المتجر»

«أتقصد سلام؟ إنه قريبنا، ابن خالي»
«وما الذي كان يفعله هنا؟»

«إنه بخصوص موضوع محاولة الاختلاس التي طلبت منك التحقيق حوله سابقا، لقد تعرضت شركة العائلة لمحاولات مشابهة لذا جاء للتحري، إنه محقق خاص»

يجيبه ركان ليعود كل منهما للعمل على ما بين يديهما، إذا هو محقق خاص، يتمنى أن تكون هذه المرة الأخيرة التي يراه فيها، اخترقه سابقا بعدما لاحظ بحثه المريب المتكرر عن اسم عمه فارس، ظن حينها أنه علم عن موضوع عمله في العصابة، المزعج كان يستمر في تجاهل تهديداته له، ياله من عنيد، بقاءه حولهم قد يجلب المتاعب

فجأة أثناء رسمه لملامح الانزعاج يوقظه صوت رنين هاتف ركان، يجيب الأخير، ليقول بدون أي مقدمات باستغراب وعيناه عليه: «نعم إنه هنا في المتجر»

*

بوريزا
مطعم في منتصف المدينة

«أراك لاحقا، انتبه على نفسك»

«أمتأكدة من أنك لا تريدين مني المجيء معك؟ أريد التعرف على ريان الذي تستمرين في الثرثرة حول أمره»

«لا تكن عنيدا، هو ليس من الأشخاص الذين يرتاحون عند تواجد الغرباء، لا أريد إفساد لم شملنا»

«حسنا، ليس وكأنكم أبناء وزراء»

يجيبها ذؤيب مكشرا وجهه بادعاء للانزعاج، ليردف مشيرا لهاتفه: «أخبريني عندما تنهين، أستودعك الله»

وسرعان ما يحرك السيارة مبتعدا بعدما كادت مزامير السيارات تصم آذانهم، أما ضياء فظلت واقفة عند مدخل المطعم، تتبع سيارة ذؤيب بنظرات هادئة قبل أن تمسك هاتفها مراسلة ذاك الشخص
"سعود سأبقى مع ريان لبعض الساعات، أنا في انتظارك"

تذبل نظراتها بقليل من الحزن الجلي، أخبرته عن موعدها اليوم لكنه كالعادة لا يقرأ رسائلها، ستطلب من ريان مهاتفته فربما يجيب

تدخل المطعم لتبحث عن الأخير لكنها لا تجده، يبدو أنه لم يصل بعد، تجلس عند الطاولة الثالثة منتظرة إياه، قال أنه رقم طاولتهم الخاصة، تغمض عينيها آخذة نفسا عميقا، تشعر بالسعادة كونها ستراه أخيرا، لكنها لا تنفي توترها، ماذا لو علم والدها أم شقيقها سعد بالأمر

تفكر فجأة فيما حدث بالآونة الأخيرة، لا تذكر ماذا وكيف حدث الأمر لكنها وجدت نفسها في المستشفى، سمعت أنها أصيبت بانهيار طفيف، لا تعلم سببه، ومن حولها يرفضون إخبارها

تذكر قليلا من السنوات الماضية، حدث لها الأمر بالفعل بعد شجار مع سعد، لا تذكر تفاصيل ما قيل وحدث حينها، لكن كلام الطبيب لا يزال عالقا بذهنها

«عليها الراحة والعيش في أجواء هادئة، انهيار آخر سيشكل خطرا على حياتها»

هذا الكلام مطابق لما قاله الطبيب هذه المرة، لا تعلم لماذا، هل هي تعاني من مرض خطير؟ لهذا تنهار بين الفترة والأخرى؟ لكن لما تشعر وكأن حلقة من ذاكرتها تصبح فارغة، وكأن أحداثا كثيرة تُفقَدُ منها

تتجاهل التفكير أكثر لتفتح عينيها إثر شعورها المفاجئ بثقل يد كتفها، تستدير مغتصبة الابتسامة، لابد من أنه ريان، لقد اشتاقت له

لكن سرعان ما تعلو معالم الصدمة وجهها، إنه ليس ريان، بل هو سعد

*

هاسلاند
في ذاك المنزل

«أليست الأزهار متفتحة بشكل جميل اليوم؟»

يستنشق أولياندر عطر زهرة الأوركيد المتوسطة لأخواتها التي تملأ الحديقة وسط تعليقه هذا، تحت نظرات فارس الواقف عند مدخل الحديقة
يغرقه بنظرات مليئة بالكره، حقد دفين غذته الأيام والسنين لتضاعفه، أخيرا إنه أمامه

«تلك العصابة الغبية، حان موعد تلاشيها أخيرا، كان أمر ترأسها طيلة هذه السنوات بمثابة وجع رأس فظيع»

أثناء كلام أولياندر أخذ فارس في التقدم نحوه، لا يهتم بمحتوى ثرثرته، فكل ما يراه بين عينيه هو وجهيهما، شقيه وأمه التي أكلتها الحسرة على موته، والذي كان سبب توديعه لهذا العالم هو الرجل الواقف أمامه

«إستغرق أمر تفكيك المنظمة الأم والتفرد بترأس الأوركيد الكثير من الجهد والحيلة لكنني استطعت فعلها بسهولة في النهاية»

نعم، هذا الرجل الذي يتكلم، كان السبب الأوحد في دمار واقع وحياة أحبته

يرفع فارس المسدس الذي كان ممسكا به ليوجهه نحو أولياندر ضاغطا على رأسه، ليردف الأخير متذكرا: «صحيح، كانت هذه الطريقة التي قضيت فيها على زعيم المنظمة»

«لا يهمني، الآن حان وقت تهشيم جمجمتك أخيرا»

يهتف بها فارس بنظرات غارقة في النشوة، حلم حياته سيتحقق الآن، وقبل أن يضغط على الزناد يوقفه تعليق أولياندر المشفق:«لكن هل تظن أنّ موتي سيحل كل مشاكلك حقا؟»

تحتد نظرات فارس: «ما الذي تقصده؟»

«لا أعلم من أين تحضر هذه القوة التي تجعلك ترفع السلاح على من يحمل نفس دمائك»

«لا تغير الموضوع! ما الذي تخفيه؟ لقد انتهى أمر العصابة بالفعل والآن حان دورك، لا يوجد تهديد آخر»

صراخ فارس لا يمنع أولياندر من تثبيت نظراته على عينيه بابتسامة مشرقة، ليقول كمن لا يسمعه:

«أنظر لعيناك الساحرتان، إنها مثل خاصتي، فارس، لا تنكر أصولك، دماء أمبروسيا تسري في كل مسار من عروقك»

وقبل أن يقاطعه فارس مجددا يضع أولياندر يده على كتفه مردفا بهدوء مخيف: «لا فرق بيننا عزيزي، أنت تريد الانتقام لدماء أحبائك مثلي تماما، نحن هم الطيبين المظلومين، أما الطرف الشرير فهم آل ميّاس»

ويشير للمنزل المحترق الذي خلفهما: «هم من بدؤوا الحرب، حتى أخي الأكبر، لو لم يعبث عزام بدماغه وقام بتشجيعه للتمرد على غايتنا النبيلة لما اضطررت لإنهاء حياته، لو لم يصبح شرطيا لاستطعنا استرداد شرف العائلة وشرب دماء آل مياس»

وبتنهد يرافق ملاطفة أولياندر لإحدى الزهور: «لابد من أن قلب أخي المسامح هو من يسمح لهذه الزهور بالنمو هنا بسلام، أما زهور قصر أمبروسيا فلن تقرر الظهور قبل أن ترتاح أرواح سكانها»

«هذا يكفي! سأضع حدا لهذه الهلاوس»

يقاطعه فارس بعدما اِنعدم صبره، إلا أن ابتسامة أولياندر المشفقة تزداد اِتساعا أثناء سؤاله: «هل تظن أن موتي سيمنع الأرواح من اِسترداد شرفها الضائع حقا؟ حتى لو لم أكن أنا، فهناك من سيكمل الطريق»

التساؤل الذي غمر نظرات فارس الحائرة لم يتم الإجابة عليه، بل أردف أولياندر الحديث حول موضوع آخر: «وهل تظن نفسك ذكيا حقا؟ هل وصلت إلى هذه المرحلة بسبب عبقريتك فقط؟ أنت بحاجة إلى أن تكون أكثر نضوجا صغيري، تسللك لمكتبي أثناء الحفل، الملفات والأسرار التي ملأت هذا المنزل، هل تظنني كنت مهملا لدرجة تركها بهذا الوضوح؟ كل ما في الأمر أني كنت بحاجة للمساعدة من أجل التخلص من وجع الرأس، لذا أوليتك المهمة»

وبنظرة ثاقبة يحدق بها نحو فارس: «مشاهدة اِجتهادك كان ممتعا، بقدر اِستمتاعي بالعبث مع بقية أفراد آل ميّاس، خاصة تلك الطفلة، سمعت أنها باتت المفضلة لدى والدك بعد تخلصه من سحر سَحَر، كنت لآمر بذبحها في اللحظة التي تم خطفها فيها لكني تراجعت، تراءى لي أن فكرة تفجيرها وتطاير أشلائها أشد وقعا على قلب عزام»

«خطفها؟ لقد خُطِفت عن طريق الخطأ، لم تكن لك يد في الأمر، بل كيف لك أن تعلم مكان إقامتها حينها؟ لقد أرسلها أبي بعيدا دون أن يعلم أحد عن مكانها»

بشكل غير متوقع يقرب أولياندر الزهرة لأنفه مستنشقا إياها مجيبا: «لكلّ منا زهرة الأوركيد الخاصة به، والتي لا تخون أبدا»

وليردف بابتسامة حالمة محدثا ما بين يديه: «عزيزتي، انتقمي من عزام، هو من سرق أخي العزيز، ولتتبعيه بكل فرد من ميّاس، اِجعلي أرواح أمبروسيا ترتاح، ولتزهر الزهور»

لا يستطيع فارس إدراك مغزى كلامه، يبلغ غضبه ذروته، ودون أدنى تردد يضغط على الزناد هاتفا: «فلتغرق في الجحيم أيها الخرف!»

سرعان ما تسقط جثة أولياندر أرضا، لتسقط بجواره وردة الأوركيد معانقة الثرى، أما صدر فارس فيستمر في الصعود والهبوط، لا يصدق ما تراه عيناه، لقد حصل على اِنتقامه أخيرا

أخيرا، يستطيع الراحة

كان هذا ما ظنه لثوان قبل أن يصله صوت الرنين، يمسك هاتفه، إنه ريان، يرد بصوت قد بحّ بعد صراخه الكثير: «ما الذي تريد...»

يقاطعه صوت ريان من الطرف الآخر بنحيب جعل قلبه يلامس قاع الأرض: «فارس! أسرِع، المطعم الذي ذهبت له ضياء وأبي قد اِنفجر قبل دقائق»

*

بوريزا
.. في المطعم ..

«سلام هنا!»

يصله صوت ابنة عمه المنادية، يراها رفقة بعض بنات العائلة ليتجه نحوهنّ، يلقي السلام ليمرر لهن الكيس الذي طُلِبَ منه إيصاله لهن

«رؤى ترسل اِعتذاراتها، إنها في شهرها التاسع كما تعلمن»

«أوه لا بأس، نحن من علينا زيارتها، جميلتنا ستجعلني عمة بعد أيام»

تجيبه شقيقة ذؤيب بابتسامة منعشة، لتردف مشيرة نحو الكرسي: «تفضل وشاركنا، تستطيع استعمال دعوة رؤى، من الرائع الحصول على دعوات مجانية لهذا المطعم الجديد، قال العمال أن هناك حفلة ستبدأ بعد دقائق»

وقبل أن يجيبها بالرفض تقول شابة أخرى موافقة إياها الرأي: «نعم، هذا لطيف، أتساءل من صاحب الدعوات، لابد من أنه ثري»

«هل كل أفراد العائلة قد حصلوا على هذه الدعوات؟»

يسأل سلام بفضول لتجيبه إحداهن: «طبعا يا ابن عمي، لابد من أن دعوتك غارقة بين ملفات عملك في المكتب، سبق وسمعت من رؤى أنك فوضوي»

تستمر النسوة في إلقاء التعليقات وتبادل أطراف الحديث والضحكات، أما سلام فيظل واقفا محدقا بأنحاء المطعم بتفكير، هل كل المتواجدين تمت دعوتهم من طرف الشخص المجهول؟ لكن ما سبب عدم تواجد الكثيرين، يستطيع عد الجالسين على الأصابع حتى

ومن يكون هذا المجهول؟ أهو صاحب الحفلة التي ستقام بعد دقائق؟ ربما يريد إظهار موهبته على بعض الأثرياء في سبيل الحصول على دعم مالي، لكن الأمر لا يزال مريبا

ينوي تحليل الموقف أكثر، لولا ضحك قريبته الذي يوقظه، وكأنها قرأت ما يفكر فيه

«عليك التخلي عن هذا الحذر المبالغ سلام»

«حسنا، والآن اعذرنني عليّ الذهاب، لدي الكثير من الأعمال»

يخاطبهن بابتسامة بسيطة قبل أن يستدير ناويا مغادرة المطعم، لكن سرعان ما يجذبه صوتها، يتوقف عن السير محدقا اتجاه مصدر الصوت، إنها ضياء، تجلس على طاولة واحدة مع سعد

«هل يُحرم عليّ الشوق في دستوركم أيضا؟»

هتافها الملفوف بقهر عظيم، رافقته دموع ملأت مقلتيها، لا بد من أنها قد خاضت نقاشا قاس بعض الشيء، ليس وكأن شيئا غير هذا سيحصل بوجود سعد في نفس المجلس معها

يتقدم سلام نحوها متذكرا آخر ما حدث قبل فترة، لا يعلم حيثيات ما يحدث لكن عليه إبعادهما، جسمها لن يتحمل انهيارا آخر

«ضياء توقفي!»

تتجاهل ضياء نداء سلام وكأن آذانها ترفض سماعه، بل تستمر في التحديق في سعد بقهر عظيم، تمر أمامها ذكريات هذه السنة، منذ اللحظة التي تخلى فيها والدها عنها

كل هذا كان بسبب الشخص الجالس أمامها، والذي لا يزال يجرؤ على التحديق فيها بنظرات تملؤها القسوة لا تذكر أنها فارقت عيناه

«لا تقلق، سيأتي سعود وسينهال عليك بالضرب، أنا أخبره بالفعل بكل ما تفعله بي»

رميها لهذه الكلمات المرتفعة رافق إمساك سلام لساعدها وسحبها نحوه، مجرى الحديث يؤول لمسار خطير، عليه إخراجها الآن

لكن سعد لم يمنحه الكثير من الوقت، فبدم بارد كان قد أجابها ونظرات القسوة تزداد عتما لتنبض بحقد دفين: «سعود سيأتي؟ كيف هذا وأنتِ قد قتلته بالفعل؟!»

«سعد إلتزم الصمت رجاءً!»

يصرخ سلام بفزع، ليلتفت المتواجدون نحو مصدر الفوضى بفضول، أما ضياء فتجيبه بإنكار: «ما الذي تقوله؟ سعود حي، أنا أحدثه بالفعل»

وتشير لهاتفها، لتبلع ريقها، تريد وصف سعد بالجنون، لابد من أنه فقد عقله أخيرا، لكنه يمنعها بكلامه: «هل تقولين أنك تتحدثين مع جثة متفحمة؟»

«سعد! هذا يكفي»

يصرخ سلام بغضب هذه المرة، ليحاول حمل ضياء بعد محاولات جرها الفاشلة لكنها بجوار وزنها الثقيل ترمي عليه ضربات عديدة في محاولة للابتعاد عنه، تنفي ما سمعته آذانها لكن سعد يستمر في تأكيد ما لا تريد تصديقه، ولختم كلامه يشير نحوهما، هي وسلام، صائحا: «يجب على ذاكرتك الانتعاش وتذكر الذنب الذي اقترفته، أنتِ وهذا الوغد، لو لم تذهبا لمنزل تلك المرأة، لما غرق أخي في الذنب وقرر إنهاء حياته!»

وقبل أن يرد عليه سلام بالمزيد كانت مخاوفه قد تحققت، ضياء، إنها مستسلمة، لا ردة فعل، لا صراخ ولا دموع، كمن فقد حواسه، ثوان قليلة حتى شعر بها تسقط بين ذراعيه فاقدة الوعي

الفصل الثاني عشر

الدماء التي تغذي عروق كل واحد في هذا العالم، إنها السبب في تواجد شيء يسمى العائلة

العائلة، النسب، الدماء، كل هذا هو أهم ما يعبر عن شرف المرء وحياته، لو لم يكن هذا صحيح لما أُعتبِر أولاد الزنا حثالة المجتمع

فمهما عاش الإنسان وترعرع بين أحضان أناس آخرين، فمن المستحيل أن يحس بالانتماء التام إلا إذا جمعتهم قطرات الدماء والرائحة ذاتها

وهذا الشيء الذي حُرِمَت منه بسبب مدعي الطيبة ذاك، عزام، الذي كان سبب تعاستها

تقف عند رأس تلك الصبية الملازمة للسرير الأبيض، كان من المفترض أن تتمزق أشلائها في ذاك الانفجار، لكن تواجد سعد وانهيارها كان منقذا لها، ذاك الأخرق من الذي أخبره عن موضوع تواجدها هناك؟ حرصت على عدم علمه بخصوص موضوع الدعوات

«لكن لا بأس، هناك دائما فرصة ثانية»

تحدث بها نفسها متذكرة وصايا والدها التي ملأت سنوات عيشها، ضياء، ثم إخوتها وصولا لبقية أفراد مياس، ستريق دماءهم جميعا من أجل اِستعادة شرف أمبروسيا الضائع

ترفع الخنجر الذي كان مخبئا بين ثيابها لتهوي به على ضياء، إلا أنه يخترق الجسم الآخر الذي ألقى نفسه فجأة ليحمي النائمة

يمسك ريان كتفه بألم فظيع، إلا أنه لا يقارن بجزء صغير من الألم الذي يعتصر نفسه في هذه اللحظة، أمه، أوركيدته الجميلة، إنها في الظرف الشرير!

«أمي رجاءً عودي لصوابك»

يترجاها ممسكا أقدامها بتذلل، لابد من أنها مصابة بخطب نفسيّ لا غير، ستعود لصوابها خلال لحظات

إلا أنها تدفعه بعيدا، تسحب الخنجر من كتفه متجاهلة صراخه المتألم، لتصيح بتجاهل لحقيقة أنه جزء منها: «لقد أفسدت كلّ شيء، لو لم تجعل والدك يعلم بخصوص دعوة المطعم لسار كل شيء حسب ما كان مخططا له»

«لكنني اِبنك، هل كنت سترضين موتي أيضا؟»

«أنت لست ابني، بل ابنهم، دماء ميّاس تغزوك، وهذا يجعلني أختنق في كل لحظة أراك فيها»

لا رد آخر على كلامها، يرمقها ريان بعدم تصديق يجعل دموعه تجف فجأة، هذه ليست أمه، أين أوركيدته الجميلة المحبة؟

أما أوركيد فتندفع نحو ضياء لطعنها مجددا، لكن وللمرة الثانية يتم منعها، عن طريق اليد التي شدّت على شعرها ساحبة إياها للخلف لتسقط أرضا، يكتفها الرجل مانعا إياها من الحراك لينادي على الممرضين طالبا منهم الاتصال بالشرطة

أما ريان فيقف بصعوبة، لا يهتم لرؤية وجه الرجل الذي أوقف أمه، لا يستطيع استيعاب كل الفوضى التي حوله، بل يسير نحو سرير ضياء، يجثو أرضا ليمسك بيدها الساكنة في ضعف، بينما عيناها لا تزال مغمضة

*

بوريزا
بعد سنوات

«ماما لقد انتهينا من الحفر»

تفتح عينيها بعد الغفوة الخفيفة وسط الأعشاب الشائكة وزهور دوار الشمس التي تملأ السهل

«أحسنتما، والآن فلتتسابقا نحو تلك الشجرة هناك، من يصل أولا سيحصل على قطعة بيتزا إضافية»

تقولها بابتسامة حانية ماسحة على رأس الصغيران اللذان يتجاوزان الخامسة من عمرهما، ليصرخان بحماس ويأخذان في الركض

«كونا حذرين!»

تهتف بها في قلق نادمة عن اللعبة التي اقترحتها عليهما، ليجيئها صوت رجولي من خلفها، والذي قام صاحبه بوضع علب البيتزا أرضا ليجلس بجوارها: «سبحان الله، تبدين كأمهم الحقيقية فعلا»

تميل فمها بعبوس لتضيق عيناها بشك مصطنع: «هل تقصد أني أبدو أكبر سنا من عمري الحالي؟»

أما هو فيضيق عيناه رادا عليها بجدية مصطنعة: «لا أيتها العجوز، لا داعي لأن أقصد شيئا واضح للعيان بالفعل»

«مستفز مهما مرت السنوات»

تقولها متمنية وجود وسادة أمامها لتقذفه بها، أما هو فيضحك باستمتاع: «لن تكوني ضياء بشحمها ولحمها إذا حضينا بمحادثة طبيعية عزيزتي»

تبتسم على رده ليبادلها الاِبتسامة بحب تنبض به عيناه، إلا أنه سرعان ما يعبس بعد سماع سؤالها: «ماذا كان رد رؤى؟»

«يا لك من مدمرة للحظات الجميلة»

يتنهد ليردف مناولا إياها قطعة البيتزا الأضخم: «رفضت رؤية الطفلين كالعادة، تقول أنها لا تريد رؤية أي شيء يخصني»

"من يرى هذا سيرفض تصديق أنها من طلبت الاِنفصال أولا"

يكتفي بقول هذا داخله، لكيلا تظن ضياء للحظات أنه نادم على طلاقهما، فبعد ولادتها لتوأم مباشرة فضلت المغادرة، أما هو فلم يمنعها، وكأنه كان ينتظر هذه الفرصة منذ زمن

خاصة بعد معرفته لكونها من وشت بمكان ضياء لسعد في يوم ذهابها للمطعم، لقد كان تصرفا نابعا من الغيرة الخالصة، لكنه لم يستطع مسامحتها عليه، نظرا لكونه كاد يفقد جزءً من قلبه بسبب هذا

«الشفقة والحب شيئان منفصلان، وأنا لن أحتمل أن تبقى بجواري بينما يملأك الشعور الأول فقط»

كانت هذه عبارتها التوديعية، لقد علمت ما يخبئه في قلبه دون أن يضطر لترجمته على لسانه

ودون إطالة يغير الموضوع سائلا ضياء التي تتأمل الطفلان في هدوء: «ماذا عن ريان؟ هل تريدين زيارته؟ هو على الأرجح في زيارة لوالده سعد، اليوم موعد زيارة أصحاب الجنايات»

«أوه لا، الأحمق لم يعد من الدولة المجاورة بعد، قال أن الإختبارات تمنعه، لكني موقنة أنه منشغل في قضية ما»

«لقد أصيب بعدوى سلام إذا في النهاية، من عاشر قوما أربعين يوما أصبح مثلهم»

يعلق ذؤيب بسخرية، ليستدير فجأة نحو الرجل الذي قاطعهم: «لكن لحسن الحظ لم تصبه عدوى الفوضى بعد، شكاني قبل أيام من منظر مكتب سلام الذي كاد يصيبه بنوبة قلبية»

«أبي!»

تصيح بها ضياء لتقفز نحو عزام معانقة إياه بشوق، أما ذؤيب فيبتسم معلقا: «أنظروا للغبية التي ترحب بمن رماها قبل سنوات في منزلي، تحلّي ببعض الكرامة على الأقل»

«لو كنت سأتحلى بالكرامة لتركتك في اللحظة التي وصفتني فيها بالعجوز»

ترد ضياء بشقاء ليطلق عزام ضحكة عالية: «هذان الطفلان يرفضان أن ينضجا، والآن هيا إلى المنزل، الجميع في انتظاركم»

يقوم ذؤيب مناديا صغيريه، أما ضياء فتغطي البيتزا متجهزة للرحيل، وفجأة يسأل عزام فور تذكره لشيء ما: «صحيح ماذا فعلتم بخصوص تلك الخريطة؟»

ليدهشه ذؤيب برده مشيرا نحو ضياء والطفلين: «ابنتك طلبت منهما تخبئتها في حفرة ما هنا»

ويردف بعدم مبالاة متجها نحو السيارة: «ليس وكأن أحدا يود تلويث يديه بأموال تلك العائلة، خاصة بعض مهاجرة ذلك الوغد»

أما عزام فيصمت قليلا بتفكير، ليكتفي برسم ابتسامة وقورة قبل أن يضم كتف ابنته مودعا المكان: «أنت محق، دع الأيام تفعل ما تشاء، ربما سيجدها بعض الأطفال بعد سنوات أو عقود، حينها ستكون هذه الزهور قد نظفت دنس الماضي على الأقل»

تمت